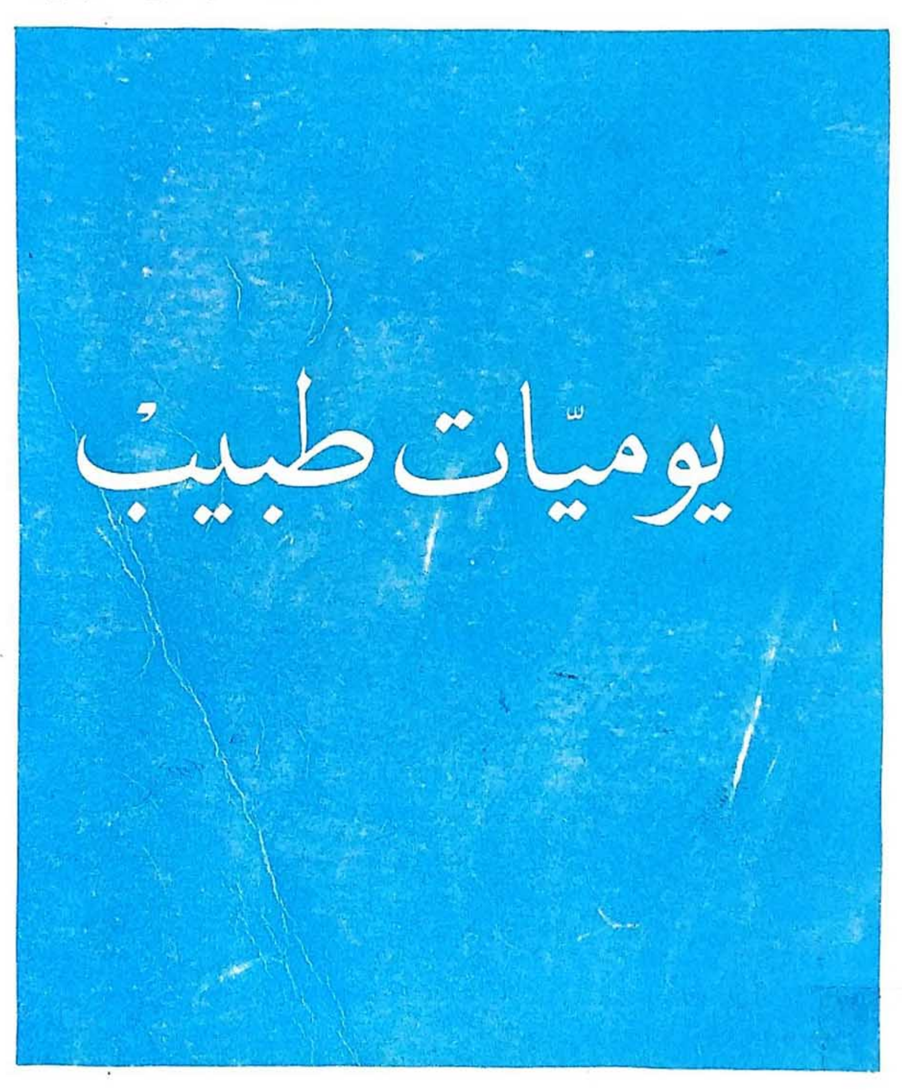
الدكتور صبري القباني



يوميّات طبيبٍ

المنشورات العلميّة

يوميّات طبيب

الدكتور صبري القباني

يوميّات طبيب

المنشورات العلميّة - بيروت

المنشورات العلمية
بيروت – ١٩٧٠

كل مهنة اذا فرغت من المحبة غدت حركة جوفاء آلية كتلك التي يؤديها « الانسان الآلي » . المحبة هي التي ابدعت الروائع الانسانية ، وهي التي لولاها لتعذر كل تقدم وعمران .

ومؤلف هذه اليوميات لا يدعي نعمة المحبة ، ولكنه جعل منها غايته القصوى في ممارسة مهنته . فعطف ما امكنه ، على الملهوف والموجوع ، وآسى العليل والمصاب ، حتى ليذكر له مرضاه كيف خفف عن صدورهم اعباء الداء ، وازال من قلوبهم ما نزل بها من قلق وهم .

وليست هذه اليوميات سوى خواطر سجلها المؤلف استناداً إلى خبرته واختباراته في غضون السنوات العديدة التي عالج فيها مرضاه وهم من جميع فئات الناس فاضحكهم واضحكوه ، واعانهم كما اعانوه ، وشعروا نحوه ، كما شعر نحوهم ، بالالفة والمحبة والوداد . وقد توخى المؤلف في تسجيل هذه الخواطر ان يتركها على بساطتها وصراحتها فتجيء اقرب ما يكون إلى واقع الحياة .

الدكتور صبري القباني

أغلقت باب العيادة الخارجي بعد ان ودعت آخر زائر بسيكارة ، وقطعة سكاكر وابرة في الوريد ، ثم اغرقت جسدي في مقعد وثير قرب المكتب ، وتناولت كتاباً يبحث في مشكلة السلوك السيكوباتي .

كانت نيران المدفأة تبعث في جو الغرفة فتوراً هانئاً يغري بالاسترخاء ، كما ان الموضوع الذي أخذت في قراءته ، كان يغري بالمضي فيه حتى نهايته .. فهو سرد لحالة نفسية عند مراهق مريض ، ظهر انحرافه وشذوذه ، حين أخذ بسرقة والديه .

ولم تلبث ان قطعت علي قراءتي ، نقرة خفيفة على الباب ، سكت سمع السكون ، وتلاها الجرس برنين متصل طويل ..

— يا ساتر قلتها وأنا أحاول مبطئاً أن اتخلص من اغراء الراحة والاسترخاء .. ولم اكتم شتيمة غير جدية بعثت بها إلى آباء الزائر المجهول الذي قطع علي وحدتي ، في هذا الوقت الذي لا يعرف بوجودي اثناءه في العيادة سوى نفر قليل من أصدقائي الخلص . غير اني وقفت مبهوتاً حين فتحت الباب ، اذ لم يكن الزائر سوى فتاة ، سرعان ما بادرتني قائلة .

— اعرف ان هذا ليس وقت العيادة ..

وكان في عينيها تلك النظرة العنيدة التي تلمح في العيون المترفة التي تعود أصحابها ان يبلغوا كل شيء مهما عز منالا .. فشعرت ، بدافع تلك النظرة — هذا اذا اغضينا عن شعور كل طبيب بواجبه — اني مضطر إلى استقبال تلك الفتاة . ولم أنس بطبيعة الحال ان اترك باب

العيادة مفتوحاً ، ولكن الفتاة المجهولة توقفت قليلا في منتصف الصالة ثم عادت إلى الباب تغلقه ببطء ..

كانت « س » وهو اسم الزائرة الغريبة — وحيدة أبويها ، وهي من حياتها في نعمة عريضة لا تكاد تحس فيها الحرمان ، فالاب تاجر معروف ، زادته الحرب الاخيرة ثراء فوق ثراء ، واقتصرت متعة هذا الثراء على الاسرة الصغيرة فلا تشرك فيها أحداً .

وكان الاب ، رغم سنه التي تجاوزت مرحلة الكهولة ، يعيش بعقلية ما قبل الحرب العالمية الأولى ، فلم يهتم بتعليم « س » تعليماً عالياً ، بل لم يهتم بمتابعة مراحل نموها وتفهم أحوالها وفقاً لهذه المراحل ، وبخاصة حين أخذ نهداها بالبروز والاكتمال ، واخذت نفسها تميل إلى الانفراد والوحدة ..

وكان شعورها بالظمأ إلى شيء مجهول يتزايد يوماً بعد يوم ، فاذا ما أخذت زينتها وتهيأت للخروج في نزهة او زيارة بصحبة امها ، أحست بما يشبه السراب ، يتراءى لها عبر الشوارع أو في الزوايا التي يقف فيها الشبان الصغار ، وفي عيونهم ظمأ لا يقل عن ظمأها ، فكانت تبطىء الخطى قليلا لتصيخ بسمعها إلى الكلمات العابرة ، تنثر دون هدف ، رقيقة حينا ، نابية أحياناً ، ولكنها رغم جميع مفارقاتها ، بل رغم خدعها السرابية ، ما كانت لتخلو من رقة تشيع الدفء في الجسوم ، وتدفع الدم إلى الوجنات .

وعلى حين غرة تخلصت « س » من رؤيا السراب حين ترقرق في حياتها نبع من الماء وكان محامياً شاباً لم يبدأ طريقه بعد ، تقدم إلى ابيها كما يتقدم الرجل الكفء طالباً يدها ولكنه سريعاً ما ارتد عن الباب حين فوجىء بضحكة هستيرية جلجلت في حلق الاب ، وترددت في انحاء الصالة .. وفهم الشاب ان التاجر لا يرى فيه الزوج المناسب ، فقام يجرر خطاه ويتلمس طريقه يكاد لا يلوي على شيء .

ثم تعاقبت الايدي الممتدة في طلب « س » فاذا ما انصتت الفتاة عبر الابواب في سكون الهرة المتحفزة لم تسمع من أبيها سوى تلك

الضحكة الهستيرية التي طردت الخطيب الاول وقد يختلف اسلوب الرفض احياناً بين رقة تارة ، وبين الجفوة تارة اخرى ، ولكن النتيجة كانت واحدة ، وهي أن « س » لم تتزوج ..

كان للاب رأيه الخاص فيمن تقدموا لخطبة « س » فجميعهم ليسوا اهلا لها ، انها كنز لن يفرط به بسهولة ، ولن يتنازل عن حقه فيه ، بصفته اباً ، الا لمن يفتح امامه الطريق إلى كنوز اغلى ..

كان يحلم بصهر يضاعف ثروته ، أو يمد في جاهه ، أو يربط حياته إلى حياته هو نفسه لا إلى حياة ابنته. اما « س » فقد أخذت حينئذ تتنكر لآراء ابيها ، يلهبها شعور طاغ بحقها في الحياة وايمانها بانوثتها أعظم من ايمانها بحق عائلتها عليها .

ولا تدري « س » متى بدأت في نفسها دلائل هذا التحول ، أمن شعورها بالحقد على ابيها ، أم من تلك النظرة العابرة التي ألقى بها « ع » كاتب المحل الجديد فملأت قلب « س » كما ملأ مكتب ابيها بنضارة شبابه ودماثة خلقه .. لقد ضم الشاب جبينه على تقطيبة راضية وهو يناول « س » لفة من الورق أرسله بها معلمه إلى البيت وكان في صوته غنة مرحة يبدو ومضها حتى في أهدابه الوطف التي تشع تحتها عينان زاخرتان بالظمأ والحنان ..

ولم تلبث اصرة المودة بينها وبين « ع » ان اخذت تمتد وتتشعب في سهولة ويسر ، أشبه بالنبات البري الذي يملأ شعاب الارض دون ان تتعهده يد .. ولم يوقظها من ذلك الحلم العارم سوى هم طارىء قطع عليها الطريق إلى الفردوس بأوهام معقدة ، اخذت تزحف في تضاعيف نفسها ، كما يزحف الداء .. وكانت تعتقد انها لا تستند إلى حقائق — وهل تحمل الفتاة العذراء ؟ — اما اليوم ، وقد انقضت شهور ثلاثة على الشك الذي اصبح يقيناً ، فان الحالة اصبحت تقضي باللجوء إلى طبيب .

هكذا اختتمت « س » حديثها وهي متكومة في مقعدها قرب

مكتبي ، وقد تعثر صوتها بغصة الدموع ، بينما غامت عيناها بأسى عميق طمس تلك النظرة الواثقة العنيدة التي طالعتني بها حين فتحت لها باب العيادة . وكنت طيلة حديثها أعبث بمبراة للمكتب دون ان أقاطعها بأي سؤال ، وان كانت عيناي لا تكفان عن تفحصها ، مسترشداً للنفوذ إلى نفسها بمقاطع من قصتها تلقي على عالمها المجهول قليلا من الضوء ..

وبدت لي حينئذ طفلة أنيقة أدمت أصابعها أشواك من الورد المحرم الذي اقتطفته في غفلة عن ابويها .. ولم استطع ، أمام ما ظهر لي من بساطتها ، ان اكتم حقدي على الشاب الذي غرر بها وعكر عليها صفو حياتها فاجابت بحماسة « كلا يا دكتور ، ليتك تعرفه انه عطوف ورجل .. لم يتأخر عن مواجهة ابي في طلب يدي حين اخبرته بما هنالك » ثم استطردت بصوت خفيض « ولكن الضحكة الهستيرية جلجلت هذه المرة بأشد من هزيم الرعد ، ولم يلبث « ع » ان وجد نفسه في الشارع فقد طالبه ابي ساخراً ان يكون المهر حليب السنونو ، وخاتم الملك سليمان ، وان تكون بذلة الدخلة منسوجة من شعر الملكة بلقيس .. » فقلت بمرارة وغيظ « اهي رجولة يا انستي ان يستغل رقيع ماجن سذاجة فتاة فيمتلكها ثم يعد العدة لامتلاك ثروتها ؟ »

فردت باستسلام قائلة « ربما .. ربما انت على حق ، ولكني مع ذلك ، حتى وانا في موقفي المحرج هذا لا أكف عن حبه ، وسوف أحبه بكل نفسي ولو بتنا نقتات التراب انك لا تعرف يا دكتور ما هو معنى ان انساناً اصبح جزءاً من نفسك » ولم تلبث الفتاة بعد فترة من الصمت ان رفعت رأسها الفرعوني الصغير وقالت « هذا كل شيء .. فهل أخطأت في المجيء اليك .. دون غيرك؟ » .. ورغم لهجتها المتوسلة لم أملك نفسي من اجابتها بقسوة « اسمعي يا ستي ، ليس معنى خطيئتك ان يقع طبيب بخطيئة ، لا اعتقد انني زبونك في هذه الورطة ان للاجنة حقها في الحياة ، بصرف النظر عن كيفية وجودها وظروف تكوينها .. »

وعلى حين غرة ، فطنت إلى ان صوتي قد اكتسب رعشة غاضبة ، واخذ يجلجل في انحاء المكتب ويصطدم بالجدران الخرساء ، رأيت « س » تتهيأ للقيام وقد ران على محياها يأس قاتل ، وقبل ان تخطو نحو الباب بخطواتها الواهنة التفتت الي قائلة

ـ أشكرك يا دكتور . ارجو ان لا اثقل عليك مرة اخرى ما دام قرارك نهائياً .

ثم استطردت بوهن « اعتقد اني قريباً ، لن أثقل على احد . قالتها بلهجة باردة كالفولاذ كمن استقر اخيراً على امر . فهالني ان تقوم الفتاة بعمل طائش يطوح بتلك النضارة الوديعة ، ويقضي عليها إلى الابد فلم أملك ان رققت من لهجتي ، فقلت لها بحنو صادق :

ـ عفواً يا « س » ما أنا الا طبيب ، يقدس الحياة ، ويدافع الموت .. انك تريدينني على ان أكون قاتلا ، لا يبالي بحياة كائن لم ير وجه الشمس ...

فقالت بحرارة — « لا الوملك .. يظهر ان ثمن خطيئتي لن يدفعه أحد سواي » . ولم تلبث بعد ان قالت ذلك ان سارت نحو الباب كتمثال حي للشقاء البالغ . وقبل ان تبلغه ببضع خطوات ، رأيتني على غير ارادة مني اهتف بها قائلا :

— اني منتظرك غداً في مثل هذا الوقت .

فأبطأت قليلا ورأيت كتفها تهتز بعنف فقلت نعم .. تعالي غداً ، ان في الغد جديداً على الدوام ، ولربما كان في الغيب أمر لم نستطعه اليوم .

وكنت في تلك اللحظة نهباً لحيرة لا حد لها ، فقد تداعت في ذهني صور حزينة ، مرت بي في الماضي ، لفتيات تورطن فيما تورطت به « س » فطرقن عيادتي ، ووقفن وقفتها ، ذليلات خائبات يستقطرن الاسى والرحمة ، ثم ارتددن خائبات وطواهن المجهول في غياهبه ، فبعضهن — فيما اعلمه اليوم ـ أصبحن اطلالا من مخلوقات يعشن على نزوات الرجال قذى في عين المجتمع ووبالا عليه ، وثمة أخريات وجدن

الراحة في أحضان الموت ..

ليت شعري ما هو أمر الغد ؟ .. هكذا وجدتني اسأل نفسي حين طالعني وجه الفتاة وقد شاع فيه أمل عذب . خيل الي انني اراه بعين نفاذة ، لا تخفى عليها خافية فهي تلمح كل شيء حتى حركة الماء في أعماق النسغ ..

ماكول مذموم

السبت .

يظهر ان عدوي الوحيد ، في هذا البلد الامين ، هو التلفون .. ذلك الجهاز الانيق اللطيف الذي يوضع في البيوت والمحال العامة ، للاناقة والوجاهة او لقضاء الحاجات او للمغازلات.. ولم يوضع عندي الا لسبب واحد ، هو تقريب المسافة بيني وبين الانهيار العصبي .. يوم لا ينفع مال ولا بنون !

ما اكاد افتح عيّني صباحاً – ان لم يفتحها التلفون – حتى أفاجأ بهذا الرنين الحاد الذي يثقب الاذن . وقد يكون له في غير اذني معنى خاص يدعو الى اخذ السماعة بسرعة وانتظار المفاجآت السعيدة. صفقة تجارية رابحة ، او تحية صباحية يهمس بها ثغر دافئ ما تزال صاحبته بالبيجاما ، او اي خبر آخر من هذا القبيل ، ولكنني – والحمد لمن لا يحمد على مكروه سواه – لست واحداً من هؤلاء السعداء لان صناعتي فرضت علي الا انتظر من التلفون الا اخبار المغص والاسهال ووجع الرأس والتهاب الزائدة .

رن التلفون امس – كالعادة – وتكلم صوت اعرف صاحبته، طالباً ان امر على دارها العامرة في طريقي الى العيادة لامر هام .. وكان لي في ذلك الصباح ان البي ما لا يقل عن عشرة طلبات من هذا النوع ، اعني ان كلها « لامر هام » .

المهم انني بلغت منزل السيدة – اياها – في الطابق الرابع بعد ان قطع الدرج انفاسي ، وكاد ان « يقطعني » في منتصفه وبعد التحية

والسؤال عن الخاطر وام الاولاد والاولاد وصحتنا جميعاً واحداً بعد واحد تكرمت السيدة المصون ونادت الخادم .

– اتركي الصحون يا بنت .. يظهر ان الدكتور مستعجل .

وجاءت البنت اخيراً ، فاذا هي في كمال الصحة والعافية ، لا ينقصها الا الخرطوم لتصير فيلا ، فقلت : « ما لها ؟ »

قالت السيدة :

– بسيطة يا دكتور .. لا تسمع ندائي الا بصعوبة ، اظن ان سمعها قليل قلت :

– فلماذا لا ترسليها الى عيادتي حيث تتوافر الادوات والالات ؟

قالت .. لا فض فوها :

– هي ايدنا ورجلنا ويتعطل شغلنا بدونها ..

ذكرت وقتها حكاية ابينا الذي اوصى احد افراد رعيته بأن يمتنع عن سب الدين ، لانها عادة السفلة والكفار ، وأشار عليه لنسيان هذه العادة المرذولة ، ان يضع تحت لسانه حصاة (بحصة) ليذكر وصية « ابونا » كلما وسوس له الشيطان ان يسب الدين . وبعد ان اطمأن ابونا الى ان وصيته قد تركت اثرها في قلب الرجل تهيأ للقيام ، ثم مضى ينزل درج البيت حتى بلغ نهايته فاذا بصوت ينحدر اليه من اعلى البناية صائحاً بنبرة خائفة .

– ابونا .. دخلك .. ابونا .. تعال ..

فعاد ابونا يصعد الدرج من جديد ، حتى بلغ المنزل ، فاذا صاحبته تحمل بين يديها ولداً في القماط ، وترجو ابانا ان يباركه . قال الراوي – فلم يسمع ابونا ازاء هذا الدم الثقيل الا ان يصيح بزوجها الشتام قائلا .

– ارم البحصة ولا ... ارمها او الحقني .

واظنني قد رميت البحصة كذلك .

سألت ولدي الذي نال البكالوريا عما سيختار من طريق في المستقبل، فأجاب انه ينوي ان يتأثر طريقي فيدرس الطب قلت له « لن

اناقشك بطريقة تفرض عليك رأياً غير رأيك .. ولكنني لا ارى بأساً من تنبيهك الى ان الطب لا يجلب مالا ولا سعادة ، اذا كانت السعادة تقاس عندك بعروض الدنيا. وانما هو رسالة الايثار بين الناس. فالطبيب في هذه البقعة من الشرق، شيء يشبه ام الفلافل «الطعمية» تراه مأكولا بشهية زائدة ولكنه ــ مع ذلك مذموم ، وقد يحمله الناس اوزار النتائج السيئة في ابدانهم، دون الحسنة منها لانها فيما يقول بعضهم جاءت من فحة الاجل.

واكثر الناس يمتدحون الطبيب ويطرون عبقريته اثناء الحاجة اليه فاذا غدوا في أمان ، اهملوه وتناسوه ، ولم يذكروا انه الجندي المجهول الذي يقضي نصف عمره في الدراسة والبحث ، وكل عمره بين الآلام والاسقام ، يخففها او يزيلها عن البشر .. وان سعادته تقتصر على شعوره النفسي الداخلي بأنه كان مصدر سعادة الاخرين .

قال ابني ببساطة «اعرف ان بقالاً في المدينة ينال من الربح في يومه فوق ما تناله انت في شهر ، ولكنني ــ مع هذا ــ سأختار صناعة الطب .. »

قلت : «لا عليك ، وليوفقك الله ، ولا بد من ان تنجح ما دمت قد اخترت طريقاً اختارها ابوك واصاب فيها راحة النفس ، وفاته راحة الجسم .. »

معركة في الظلام

موقف محرج دقيق وجدتني ذات يوم اتخبط فيه بلا معين ولا سلاح ولا أمل كالجندي يرى نفسه في متاهة غريبة فيخيل اليه أن كل شيء يتربص به الدوائر

كان ذلك ذات يوم من شهر آب سنة ۱۹۳۷ وكنت مقيماً في أربيل وهي مركز محافظة في العراق تقع في منتصف الطريق بين كركوك والموصل ، معظم أهلها من الاكراد المحافظين على عاداتهم الموروثة ، والمتزمتين في مظاهر الفضيلة . بيوتها قائمة على هضبة عالية ، كأنها القلاع تمتنع على حملات الغزاة ، ومن عادات القوم فيها ان تحتجب المرأة بعباءة سابغة تبدو فيها كالشبح الاسود وكأن البيوت جزء من هذه الظلمة العشواء فهي عمياء ليس في جدرانها نوافذ تطل على ارض الله الواسعة . وعلى الرغم من أن بعض الموظفين قد ابتنوا بيوتاً حول القلعة في خارج المدينة ونقلوا معهم خليطاً من العادات الجديدة ، الا ان المرأة في اربيل ظلت على ما فرض عليها من حياة سجينة مقيدة ، ينحصر طريقها بين اهلها وبيت زوجها فالقبر .

كان قد مر على مقامي في اربيل سنة واكثر كنت خلالها كصاحب الصومعة ألوذ بعيادتي ، فلا أخرج منها الا لامر تحتمه المهنة ، وقد سرت على نهج القوم في التزمت حتى اصبحت موضع ثقة المدينة يطرق اهلها بابي ليجدوا المبادرة والعناية والقناعة ، ودارت حولي الحكايات تروي عن قدرتي ما يشبه الاساطير .

في ذات مساء جاءني رجل بيني وبينه معرفة سطحية صائحاً:
« يا دكتور ! » – وفهمت ما يعني هذا النداء انه كالامر يتلقاه الجندي فيبادر إلى سلاحه مستعداً لان يستعمله في اللحظة المناسبة بوجه عدو لا يعرف من أمره شيئاً واضاف الرجل بينما كنت اهيىء حقيبتي

– ان زوجتي في خطر ، تعسرت ولادتها منذ ثلاثة ايام وهي بين الموت والحياة .

قال ذلك بالكردية ولم نلبث ان مضينا معاً وانا متهيب من هذا الحادث إذ لا بد ان يكون هناك خطر يدفع المتزمت إلى ان ينسى تقاليده الموروثة فيستنجد بيد رجل تجوس في مواضع الستر من جسد زوجه كي ينقذها من الموت المحتم .

وطالعني في غرفة الماخض هذا الجو المختلط الذي تتداخل فيه الظاهرات فلا فرح ولا ابتسامات ولا يأس ولا أمل. ثمة وشوشات خافته وأنين الماخض يأتي من تحت العباءة يفتت الاكباد، وحيزبون كره الله لقاها فابقاها تجلس إلى سرير الماخض لا تفعل شيئاً ولا تبادر إلى معونة ، بل تتخذ لنفسها صفة الامرأة المطلقة وتصيح بين اللحظة واللحظة بما يقابله في لغتنا صيحات القابلات « باعيني ولدك » .

وتبينت بعد الفحص التمهيدي السريع ان هناك نزفاً ونبضاً يعد المئة والاربعين وحالة شاذة تعارض فيها الجنين بين اليمين واليسار ولم يبد سوى ذراعه التي اقتلعت نتيجة الجذب والشد والمرأة قاب قوسين أو ادنى من النهاية اذا لم تنقذ بتفتيت الجنين بعملية سريعة .

وأفضيت بهذه الحقيقة إلى الزوج فغام وجهه وازرقت شفتاه وبانت عليه علائم الحيرة وقال بحزم .

– لا اسمح بذلك ولو فقدت امرأتي ، ان موتها خير من عاري.

فثارت ثائرتي لهذه القسوة .

كانت انانية الرجل تطغى على كل احساس انساني في نفسه ، وحرصه على سمعته من ان يشوبها حديث الناس بأن فلاناً أظهر غريباً

على زوجته قد احاله إلى بهيمة يتحجر شعورها بالنجدة فلا يهزها انين ولا يرققها حنين . ولم ألبث ان تحررت من هذه الخواطر لاعود إلى الواقع .. وهو ان امرأة في ريعان الشباب تقف على حافة النهاية كل ما يفيدها ان أقاتل الزمن وأدفع الخطر وأستنهض همتها ولو بضع دقائق ريثما تهبني الفجاءات ما يعينني على تدارك المصيبة .

وكان صوت الماخض يترامى إلي كأنه آت من مكان سحيق يقطر بالتوسل .. توسل الانسان في تشبثه بآخر خيوط الحياة يرى إلى منقذه بعين دامعة ونفس آملة ورجاء لا ينقطع بالله وبالناس .

ولم يكن أمامي الا احد أمرين . ان اسد اذني عن هذا النداء فأطوي محفظتي واعود إلى مرقدي او أكافح المستحيل والخرافة والعادات الموروثة والعقلية المتحجرة بالقوة أو بالحيلة لانال الراحة التي يطلبها الطبيب في شعوره بأنه أدى واجبه الانساني على أكمل وجه .

قال الرجل :

ـ أين زرقاتك يا دكتور تعوض بها ما تقول من ضرورة الكشف على الماخض ؟

قلت

ـ تلك حالة لا تفيد فيها الزرقات . بل تحتاج إلى جراحة تستعمل فيها اليدان والعينان والمقصات والمشارط .

ـ لن يكون ذلك ابداً فأنا اخشى سوء القالة بين الناس وسيقتلني العار اذا سرى خبر ذلك بين قومي .

وهناك فقط رأيتني فيما يشبه أحوال الذين يكشف الله لهم اسباب الخلاص بما يوحي اليهم من الطرائق والسبل ، وكان أمراً إدّاً ان افطن إلى حيلة ما ، في مثل هذا الموقف وبين قوم لا يكشفون من نسائهم لبصر الطبيب الا موضع الابرة وقد يمعنون في غيهم فلا يسمحون له بأن يزرق مريضته الا من فوق العباءة .

قلت :

ـ وهل من حرج اذا اديت عملي وانا معصوب العينين اعمل

بيدي دون بصري ؟

– (أوه باشا) زين !

ولقد كانت مجازفة ان اقبل باجراء هذه العملية الغريبة ولكن موت الماخض محقق اذا تركتها وذهبت لشأني فما علي الا ان اختار أيسر طريقين على امل ان اوُدي واجبي وأترك البقية لعناية المولى تعالى .

وفي بضع دقائق كانت ممرضتي إلى جانبي تشد أزري وتعيرني عينيها لابصر بهما ما لا تبصره عيناي المعصوبتان بشدة وبدأت اعمل مستعينا بحاسة اللمس وحدها وقد تركزت ارادتي ومشاعري فيما أنا فيه وأخذت يداي تتحركان بسرعة في تحرز واحتراس شديدين والممرضة تناولني أداة فاداة تلبية لطلبي وتهمس إلي وهي تتناول ما طلبت وأقطع من أعضاء الجنين . ذراعه .. كبده .. قدمه .. امعاءه ..

واستغرق ذلك كله ساعة وبعض ساعة كنت اثناء ذلك امرءاً ليس له ماض ولا حاضر. كنت اسبح في عرقي ... كنت كتلة من الارادة وحدها كنت شيئاً بين المنقذ والمصلح واللاشيء ، حتى لكأنني لم أكن اياي ، ولم يوقظني من هذه الحال الا تنهيدة ارتياح ندت عن صدر المرأة وكان جزائي على هذا المجهود ثواباً لا انساه اذ امتدت من تحت الملاءة يد بضة شدت كفي وطبعت عليها قبلة الشكر .

وفي الصباح رأيتني ادخل في حديث كان طابعه السين والجيم مع الاستاذ احمد مظهر العظمة الذي كان قد سمع من الناس خبر الليلة الماضية وانتهى الحديث إلى ذهول شديد اصاب الصديق من ان المعجزة قد تأتي في بعض الاحيان على ايدي البشر .

السبت .

الحقيقة ، انه يجب ان يجمع الطبيب في بلادنا معارف عديدة يضاف اليها سرعة في البديهة وقدرة على تفهم حقيقة المجتمع الذي يعمل فيه .

فلا يكفي الطبيب الناجح ان يكون متمرساً في الامراض ، قادراً على التشخيص الصحيح ، بل عليه ان يفهم كل حال من الاحوال الخاصة التي تعرض له. ومع ذلك فقد تظل ثمة حالات جديرة بالتأمل والنظر

دخل علي اليوم فتى حزين كئيب ، وقعد مطرقاً مشتت الفكر فلما فتح فمه جعلت الكلمات تتعثر وتتلكأ ..

ما الحكاية ؟

لقد سئم الحياة .. انه حلم بأشياء كثيرة ولكن أحلامه تكسرت على صخور العقوق . انه مجحود الكفايات ، معذب بين أهله وذويه .. ولكن ثالثة الاثافي في « مأساته » هي ان فتاته التي وهبها قلبه وعقد عليها اكاليل آماله تزوجت من سواه ونكلت بوعدها الذي قطعته على نفسها .. وها هوذا خالي الوفاض ، بادي الانفاض ، يفتش عن العزاء فلا يجد اليه من سبيل .. وهو الان عازم على الانتحار ولكن الشجاعة تخونه في آخر لحظة فيخرج من البيت . لم تخف مصيبته ، ولكنها على العكس زادت حدة بعد ان جبن الفتى امام الموت ، ويروح يضرب في شوارع المدينة واذا قدماه تقودانه الى امام عيادتي ، وتلفت نظره اللافتة فيدخل ..

ــ وماذا تريد مني الآن ؟

ــ ان تساعدني على الانتحار
ــ كيف ؟
ــ بصفتك طبيباً
ــ وهل هذا من اختصاص الطبيب ؟
ــ ...
ــ الا تعلم ان الطبيب يعمل على انقاذ الناس لا على قتلهم ؟ ..
ــ انقاذي بموتي .
ــ ان الحياة يا فتاي جميلة على الرغم مما قد تبديه لك من وجه اسود. ان المجتمع في حاجة الى كل حياة انسانية، وفي حاجة لكل ساعد قوي فتي كساعدك .

ــ المجتمع لا يستطيع ان ينتفع من انسان محطم مثلي. ارجو ان تعطيني ابرة تقضي علي ، اريد ميتة هينة لاني جبنت امام الموت ، ولك علي ان اكتب اقراراً بأني مت منتحراً بكامل قواي العقلية وانك حاولت ان تثنيني عن عزمي .

اخفقت في اقناعه بالخروج من عيادتي ، والانتظار أياماً اخرى لان الزمن كفيل بتبديد سحب اليأس ، لقد جلس لا يريم ولا يتحرك ولا يود الخروج إلا جثة هامدة .

ــ ما ذنبي لتختارني جلادك وقاتلك ؟
فقال في ابتسامة حزينة .
ــ يجب ان تؤدي ضريبة الشهرة التي تدفع الناس اليك دفعاً .

وكنت في تلك اللحظة موزعاً بين الاستشارات التلفونية ودخول الممرضة معلنة ان الزبائن في البهو ينتظرون . كل هذا والزائر الغريب لا يريم ولا يبدو عليه انه سيريم ..

فجأة لمع في ذهني خاطر سرعان ما قمت بوضعه موضع التنفيذ . كان الالمان يستخدمون زرقة « البانتوتال » المخدرة يزرقون بها جواسيس فرق المقاومة والحلفاء فيستطلعون بها خفاياهم فلما ذاع امرها بين الانكليز والامريكان والشعوب المحتلة ، راحوا يستخدمونها في زرق

جواسيسهم انفسهم قبل ارسالهم في مهمات ولكن بمقادير خفيفة ويوحون الى هؤلاء الجواسيس أثناء بحرانهم بما يجب عمله ليجعلوهم في مناعة ضد آثارها ، حافظين للاسرار لا يفشونها حتى في حال وقوعهم بيد الاعداء ...

وهكذا فقد صحبت زائري الى الغرفة الاخرى ورحت ازرق المادة في وريده رويداً وانا اوحي اليه بأن الحياة بهيجة وانها تستحق ان نحياها الى ان راح في سبات عميق ..

ولما استيقظ كان انساناً آخر .. اؤكد لكم ..

ألمت بي وعكة خفيفة الزمتني الفراش ، فلم اذهب الى العيادة ولكن الهاتف تولى مهمة تعكير راحتي .. احدى المكالمات التي تلقيتها اطرفتني . الصوت نسائي

ـ آلو دكتور

ـ نعم

ـ أنا هنا في العيادة انتظرك . ألم تعرفني ؟

ـ لا مع الاسف ، لان مصلحة الهاتف لم تضع لي شاشة التلفزيون على جهاز الهاتف ..

ـ تعالجت عندك اول أمس

ـ لقد عالجت اكثر من عشرين مريضة اول امس .

ـ كنت مصابة بكذا .. وجاء بي فلان .

ـ عرفتك .. أمر ؟ خدمة ؟

ـ تعال حالا ،

ـ الم تقل لك الممرضة اني مريض ؟

ـ بلى .. ولكني مضطرة لاستشارتك في أمر هام ..

ـ طيب ، ولكني لا اطيق الوقوف خذي سيارة وتعالي الى داري وسأوصي زوجي باستقبالك

ـ لا ، تعال انت .

ــ قلت لك اني مريض .
ــ غريب .. عجيب .. طبيب يمرض ؟
ــ وماذا في ذلك .
ــ اذا كنت تعلم انك ستتعرض للمرض فلماذا صرت طبيباً ؟
كدت اقول لها اني درست الطب لاعالج البشر ، واسماني اهلي صبري لاصبر على افعال امثالك ولكنني آثرت الصمت وقلت : « ما هو الامر الذي تريدين استشارتي به وانت على عجل من أمرك ؟ »
ــ قالت . اريد ان استفسر عن الحبوب هل اتناولها قبل الطعام ام بعده ؟ وقمت لتوي من الفراش افتش عن الحصاة تحت لساني لارميها .

كنت منهمكاً بفحص مريض وباب الغرفة موارب ، اذا بانسان في حوالي الخامسة والعشرين من العمر يندفع الى الغرفة اندفاع السيل . فلما اعترضته الممرضة زجرها قائلا : «وما شأنك انت، اريد ان اكلم الطبيب كلمتين . »
ورفعت رأسي اليه مترفقاً .
ــ أمر ؟ ...
واضفت باسماً .
ــ كان عليك ان تعمل بآداب القرآن فتستأذن قبل ان تدخل بيتاً غير بيتك .
فاعتذر مغمغماً بانه كان على عجل من أمره .. وبانه مريض ويطلب خدمة صغيرة ..
سألته ماذا يريد فقال :
ــ ورقة صغيرة موقعة بامضائك الكريم الى وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل لتدبير عمل لي .
ــ غيره ؟...
ــ بطاقة للشرطة والامن العام لمنحي اجازة سفر الى لبنان .
ــ بأي صفة اعطيك هاتين البطاقتين ؟

– بصفتك طبيباً معروفاً ولا بد ان بعض هؤلاء المسؤولين قد عولج على يديك ..

« الشهرة » مرة اخرى ! .. فكيف أفهمه ؟

انا معروف كطبيب لا كمعقب مصالح !

عيادات الاطباء من أغرب المعارض .. انها معارض بشرية تريك الناس على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية وسوياتهم النفسية والفكرية ، تعرض فيها آلامهم وآمالهم ، فيها يلتمسون البرء والشفاء ، بالعناية والدواء .. ولا تخلو هذه المعارض من مفارقات مضحكة تارة مبكية تارة اخرى .. تقوم الى جانب المعروضات وبها ..

وليست عيادتي — على صغرها — الا واحداً من هذه المعارض تقدم اليك نموذجاً حياً من هذه النماذج البشرية التي تحمد ربك على ان آتاك أعصاباً متينة ، والا ساءت العواقب وتركت العيادة على أقل تقدير ...

هتف الي اليوم صديق محام يقول : دكتور ارسلت اليك خادمي وهو رجل طيب لطيف ، آلمتني شكواه وما ينتابه من أوجاع ، فهو ابداً فاقد شهيته للطعام ، متوعك الجسم لا يحس نشاطاً .. وقد جعلني واسطته اليك راجياً مني الوصاية ، آملا منك العناية ، وقد حققت رجاءه ، فلا تخيب نداءه ..

فقلت سمعاً وطاعة لك وأهلا وسهلا به ولا حاجة لتلفون وتوصية ويكفي ان يصل الي ليجدني من المهتمين بأمره المعتنين بصحته ..

تركت سماعة الهاتف وعدت الى عملي اتابعه .. وانهمكت في فحص مريضي ، فأوقفني قرع شديد متواصل على باب الغرفة أزعج مريضي وتركني مذهولا .. وأسرعت الممرضة تستجلي الخبر ثم عادت تقول : بالباب شخص آت من قبل المحامي فلان . . وهو على عجل من أمره ولا يريد ان ينتظم في صفوف المنتظرين. قلت : «فلينتظرني الى ان انتهي من

فحص مريضي . » وعاودت عملي ..

ويبدو ان صاحبنا لم يرضه ان يعامل كسائر زواري في العيادة فعاود الطرق بشكل اعنف ، مما أثار أعصابي التي علمتها على الضبط والانقياد مهما شاهدت من طبائع العباد ..

فخرجت اليه مستغرباً ما حدث طالباً منه ما يريد عدا الفحص ، قال : « ارسلني المحامي فلان لتفحصني » قلت « على العين والرأس ، ولكن تريث قليلا ريثما يرتدي المريض ثيابه فليس من العدل واللياقة في شيء ان أطرد مريضي من الغرفة من أجلك وهو عار من الالبسة . » وأغلقت الباب ثانية . وما هي الا دقائق ، حتى رن جرس التلفون ثانية .. فاذا به صديقي المحامي يقول معتذراً انه على عجل من أمره وعنده مراجعون يتضايقون ان أخرهم ، ويود مني لو انهي مشكلة خادمه كي يستطيع التفرغ الى مطالعة القضايا ومراجعات الزبائن ، فقد عاد اليه الخادم متذمراً شاكياً لانني لم استقبله رأساً منذ ان طرق غرفة المعاينة ، وذلك لانه على زعمه – مريض مجاني – فأفهمته القضية وقلت : « طلبته للمعاينة بعد ان فرغت من مريضي فلم أجده ولو لم يعد اليك ويضيع الوقت بين ذهاب واياب اذن لكان قد عوين وقضي الامر . »

فحصت الخادم ، واستمعت شكاته ، بعد ان اعادها على مسامعي مثنى وثلاثاً ورباعاً ، والمرضى في غرفة الانتظار يتقلبون على جمر الامهم متلهفين منتظرين .

كتبت له الوصفة وشرحت له طريقة استعمال الدواء وأعدت عليه ما قلت مرات خيفة الخطأ .. فقال شاكياً : « انى لي الدواء ، وقد فهمت من « الاستاذ » ان العلاج من عندك والشفاء ملك يمينك . »

قلت حباً وكرامة ، ثم هتفت الى جاري الصيدلي كي يجهزه بالوصفة « على حسابي » وان يتكرم بافهامه طريقة استعمال العلاج غادرني وانصرفت الى مرضاي الذين عيل صبرهم ..

وما انقضت دقائق خمس حتى عاد يقرع الباب بشدة ويصيح بي . يا دكتور نسيت كيف يستعمل الدواء فكلفت الممرضة بتحفيظه

الطريقة ، فأعادت ذلك على سمعه مرات حتّى قال « لقد فهمت وانصرف . »

وما عاودت العمل حتّى طرق بابي للمرة – لا اعلم كم ؟ – وهو يقول « هل استعمل الزرقة (الابرة) ليلا ام نهاراً ؟ » فضحكنا أنا والمرضى – وشر البلية ما يضحك – وصرفته مستنجداً بما تبقى في صدري من صبر وأناة وحلم شارحاً له ما يريد .

ويبدوان الايناس وحسن المعاملة أغريا صاحبنا بنا ، فلم يمض ربع ساعة حتّى دخل الغرفة دون استئذان .. وكانت سيدة من المريضات ممدة على طاولة الفحص ، فشدهت للمفاجأة ، وتناولت معطفها تستّر به وجهها وما تعرى من جسدها ، ولما لمته على تصرفه قال بكل وقاحة «ماذا عملنا يا سيدي، هل اكلنا الست ؟ .. وهل نقصت شيئاً ؟ جئت اسألك عن قطرة الانف متى استعملها قبل الطعام ام بعده ؟ »

دعاني أحد الزملاء من الاطباء للاشتراك معه في معاينة أحد مرضاه، فلبيت الدعوة ؛ وتبين لنا بعد الفحص ان مرضه داخل في اختصاصي. فأوكل الي امر معالجته والاشراف على تداويه حتى يتم له البرء والشفاء.

وبعد مدة أصيبت امرأة هذا المريض بنوبة كبدية من حصاة قديمة كانت تلازمها ، فرأيت انها بحاجة الى عملية بأسرع وقت ممكن واقترحت دعوة الزميل الجراح الذي عرفني على هذه العائلة لنتدبر الامر معاً.

حددنا الوقت وساعة الاجتماع مساء... ولكننا اضطررنا نحن (الطبيبين) الى التأخر ساعة عن الموعد بسبب حادث طارئ فلما دخلنا الدار كان الوقت متأخراً.. واستقبلنا افراد العائلة بالترحاب ، وبعد ان انتهينا من فحص المريضة وقررنا العلاج اللازم ، قمت الى البراد افتحه ، فتسابق الاولاد والزوج الى مساعدتي لتقديم العشاء وقلت ان وقت عشائي قد حان ، ولن آوي الى داري قبل ساعة أو ساعتين اقضيهما في المطبعة ، وسأكتفي عندكم بقليل من الفاكهة واللبن كيلا تكون خسارتكم بهذا الضيف فادحة... ورحت اهيئ ما اريد بينما كان الصغار من حولي والابنة تسرع لجلب بضع زيتونات..

ولما صرت الى جانب زميلي على المائدة ، همس في أذني : ويلك ! اني اعرف هذه العائلة منذ عشر سنوات ، وأنت لما يمض على معرفتك بها الا شهر واحد.. فكيف تتصرف بين افرادها وكأنك واحد منهم ؟ هلا دللتني على الطريق ؟ قلت له : « لقد سمي الانسان من الانسانية ، فافتح قلبك للناس ، تتربع على عروش قلوبهم !.. »

حالة مستعجلة

كان يوم الجمعة ، يوم راحتي الاسبوعية ، وكلمة الراحة هنا مجازية ، لانني من الفئة التي حرم افرادها طعم الراحة ، واذا ارتحت من مرضاي في العيادة ، فان طريقهم الى الدار معروفة ، وان تخلصت منهم في الدار لم ترتح اذناي من رنين جرس الهاتف يدقه سائل أو سائلة أو مستشيرة لا اعرفها ولا تعرفني ، فاذا لم يكن هذا ولا ذاك فان المجلة في انتظاري والتفكير في موضوعاتها ، وانتقاء صورها يقطع علي كل وقت من اوقات الراحة .

في هذا اليوم اتيح لي ان ادخل الحمام .. ولم يمض على دخولي عشر دقائق حتى جاءتني ام البنين تقول : « بالباب رجل ملحاح » ، قلت : « وما حيلتي فلينتظر » . قالت : « انه يأبى الدخول ويأبى الانتظار ويأبى الرجوع من حيث أتى ، انه يلح ويلحف بالرجاء ان يراك ولو داخل الحمام ويبدو انه على عجلة من أمره ».. قلت: «انا لله وانا اليه راجعون ، لعله في مشكلة لا تحتمل التأجيل ولا دقيقة » . فبادرت الى لقائه ، والماء يقطر من شعري ووجهي ، وقد لففت جسمي ببعض المناشف ، فابتدرني بالاعتذار .. بالاعتذار عن ازعاجي أولا ، وبالاعتذار عن عدم الدخول ثانياً لان دخوله معناه تسجيل أجور الاستشارة ، وهو لا يبغي دفع أجر ما ، لان مسألته بسيطة .. وراح يلخص شكاته ــ وكلانا واقف بالباب ــ بعشرة آلاف كلمة ، فهمت منها ان امرأته لها خمسة أولاد ولا تستطيع خدمتهم جميعاً ولهذا فان حياتها مربوطة بالخادمة فهي (ايدها ورجلها) وهذه الخادمة ــ حفظها الله ــ مريضة

منذ اسبوع ، تجر رجليها جراً .. ويخشى ان يكون قد أصابها مرض او عادت اليها الانفلوانزا ثانية .. وللخادمة ثقة بي ، فهي تأبى الا ان يستشيرني ، ولن تصدقه الا اذا جاءها بوصفة طبية مكتوبة بخطي وممهورة بتوقيعي الكريم وعليها صورتي ...

قلت : اما كان بامكانك – يرحمك الله – انتظاري ريثما اتم اغتسالي ؟ سأرفع الحصاة من تحت لساني ، واشتم اليوم الذي صرت فيه طبيباً .

كلمتان من يدي الكريمة

لم أذكر انني شعرت بالتبرم من القيام بشيء من تلك الاعباء التي تفرضها علينا صنعة الطب. فالواجب يقتضينا ان نتهيأ دائماً لاحتمال المتاعب، ومهما تكن المزعجات التي تهاجمنا في النهار وتطرق ابوابنا في الليل، فان عزاءنا انما هو في يقيننا ان للمرضى مزاجاً واخلاقاً تضطر صاحبها ان يسترسل مع طبعه الطارئ، ونحن قبل كل شيء اطباء يدخل في اختصاصنا العناية بالنفس مع العناية بالجسم.

شيء واحد ما أزال اتبرم به واستعيذ بالله منه، وهو الواجبات التي يطلب الي القيام بها خارج اوقات الدوام فلا يكون في يدي سماعة ولا ميزان حرارة ولا مقياس ضغط ولا اي شيء مما نستعمله في حالات المعاينة والتشخيص والمعالجة.. وطالما رأيت.عجباً من احوال بعض الناس في مثل هذا الامر، وانا افهم ان يلوذ الحائرون او القلقون اليائسون بأحد الاطباء ليستوحوا من علمه يقيناً وهدوءاً وأملا، ويتخذوا من تجاربه رائداً يقودهم الى الاستقرار، ولكني لا أفهم الى اليوم كيف يمكن للطبيب ان يكون شرطياً يفرق بين المتخاصمين أو قاضياً يقضي بين المختلفين أو مختار حارة يوزع على الطالبين شهادات بحسن السيرة والسريرة، أو سمساراً يطوف بين الدوائر ساعياً لتعيين الاصدقاء والمريدين، ويملأ وقته بهذه التوافه وهو معلق الشفتين بسماعة التلفون كي يرجو هذا الامين ويتوسل الى ذلك الوزير ويحل مشكلات الناس ويملأ حياته غضباً كي يرضي البشر!

حاولت أمس ان اقنع أحد الناس بأنني طبيب.. ولست مختار

حارة ولا صاحب مكتب للوساطة . وكان قد دخل عيادتي كالعاصفة ، ونقر غرفة المعاينة بشكل يوحي بأن هناك حالة خطيرة ، وكان بين يدي مريض يحتاج امره الى تركيز الانتباه والدقة والصبر ، فلما افهمت الممرضة زائرنا — اياه — ان الطبيب مشغول ، سمعته يصيح : « ولكن الامر ضروري يا آنسة ! » فاضطررت الى ترك مريضي لاستوضح من الرجل « هذا الامر الضروري » فاذا به يقول . —

— ارجوك يا دكتور .. ورقة من يدك الكريمة ..

— ورقة ..

— اي نعم « مشرفة » ..

وحضرتني روح المعابثة التي تتأتى احياناً عند احتدام الغيظ ، فأخرجت من جيبي ورقة بيضاء من غير كتابة وقلت له ببرود . — « تفضل .. هاك الورقة » .. فقال : « لا .. اريدها مع كلمتين » .. « فخربشت » على الورقة بكلمتين لا معنى لهما .. وقلت له : « خذ .. هاك الكلمتين .. » وبدهي انني لم أمض طويلاً في هذه التمثيلية السخيفة لان الواجب يدعوني لكي أعود بسرعة الى غرفة المعاينة وبخاصة وان صاحب الحاجة قد مضى يشرح حكايته الطويلة .. عن مشكلة لا أعرفها لانني لا أعرفه .. وعن (مرض) لا علاقة له بما يعرفه الاطباء من الامراض .. وانما هو شيء مما يدخل في اختصاص أحد الوزراء .. لانه طالب وظيفة ، ويرجو تزكيته ومن ثم تعيينه .. فطويت كشحاً عن الرجل وقلت له : عافاك الله ..

يظهر ان بحبوحة العيش تترك آثارها السعيدة في المتنعم كله ، في مشيته ونظره الى الاشياء وصوته . وقد كانت في هذا الاخير رقة وانسياباً هيناً في سماعة الهاتف . كان صوتاً أكاد أقول وثيراً ينبيك عن ان صاحبته لم تضطر الى الصراخ اثر الاطفال أو مساومة الباعة الجوالين . انه صوت مترف متنعم ولم أكن اعرف المتكلمة ولم تعرفني هي بنفسها ولكنها طلبت موعداً خاصاً لفحصها فحددت لها فترة تخف فيها وطأة العمل .

ودخلت الغرفة واذا هي كما انبأني صوتها ووصف الشاعر « بيضاء باكرها النعيم فصاغها بأناقة » ، جسم لدن وقد مياس يفتر ثغرها عن ابتسامة هانئة والوجه فيه براءة البرعم الذي لم يتفتح وبشاشة الرضا والصبا والاعتداد بالجمال .

قلت : هل يزعجك شيء ؟

قالت : لا ، أنا لا أشكو مرضاً ولكنني قرأتك تشبه الجسم بالسيارة وتنصح بعرضه بين الحين والآخر على الطبيب كما تعرض السيارة على الخبير بها . وقد مررت بمرآب لخدمة السيارات فأودعت لديه سيارتي لكي يفحصها ويصلح خللا هنا وعطلا هنا ، أو يتخذ ما يمكن ان يكون وقاء من خلل وعطل ممكنين ، ثم جئتك وفي ودي ان تفحصني وتسدي إلي النصح فيما يجب علي عمله للحفاظ على ما أملك من صحة وشباب وجمال .

فقمت افحصها وانا ابتسم للتشبيه ، وابتسم للمفارقة التي صادفتها في يومي وما أكثر المفارقات في حياتنا نحن الاطباء !

قالت : ما يضحكك ؟ قلت : « ها أنذا أفحصك فلا أجد بك الا استعداداً للبدانة وهو امر يسير تستطيعين تجنبه بهجر الادهان والسمن والنشويات ، فيظل لك هذا الجسم الرشيق والقوام اللدن المياس ، وازيد محذراً اياك من الافراط في ركوب السيارة لان قيادة السيارة لعبة لذيذة قد تصرفك لذتها عن لذة الرياضة البدنية والتنفس العميق والتعرض لاشعة الشمس التي تفجر الحياة في النبات والحيوان والانسان .. ومع ذلك فأنت حريصة على هذا الجسم الذي خلقه الله في أحسن تقويم ، واني منذ دقائق كنت افحص مريضاً انتشرت فيه العلة وتأصل في جسمه الداء ولكنه ابى استشارة طبيب رغم مرور اكثر من سنة على اصابته وعلى الرغم من كونه في سعة من العيش مردداً عن جهل « لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » ، مع ان الرسول « صلعم » امرنا بالتداوي وباستشارة الاطباء . فقد جاء عن سعد بن ابي وقاص انه قال :

« مرضت فأتاني النبي « صلعم » يعودني فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها في فؤادي . فقال : انك مفؤود . ائت الحارثة بن كلدة أخا ثقيف فأنه رجل يتطبب » .

والحارثة بن كلدة هذا هو الطبيب العربي القائل : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، واذا أكلنا لا نشبع .. المعدة بيت الداء .. والحمية رأس كل دواء ..

ولا ريب في ان الوقاية من المرض خير من اللجوء الى الاطباء ولكن اذا حدثت الآفة ، فالطبيب هو الذي يفصل فيها قبل ان يستفحل امرها ، وهو الذي يساعد في العودة الى الصحة اذا كان في الاجل والقدر عون . وهو على أي حال قمين بأن يخفف من الغلواء ويهون من الالم وهذا كاف لكي لا نتردد في استشارته .

عندما يمرض الطبيب

كنت كتلة من نشاط .. وكنت أتوهم ان ما يمور في عروقي اوقيانوس ، لا ينضب له معين . فأطلقت نفسي من كل عقال ، واندفعت استهلك كل ما أملك من احتياطي .. ومرت علي شهور عديدة كنت أعمل خلالها في الحقل السياسي ، وأزود الصحف اليومية والاسبوعية بالمقالات ، والقي المحاضرات على طلابي في جامعة دمشق ، والاحاديث من الاذاعة ، وأؤلف كتباً أراها ضرورية لتعليم الناس أبجدية العناية الطبية .

وذات يوم .. وقعت فريسة المرض ، طريح الفراش ، فلم استطع مزاولة عملي وتناوب الزملاء عيادتي واقروا ان خللاً اصاب المحرك الذي لم أرحمه . وفرضت علي الراحة شهرين كاملين .

واتخذت والدتي لنفسها صفة الدرع ، كان الهاتف لا يكف عن الرنين ، اصدقاء يستفسرون ، مرضى اعتادوا استشارتي كلما ألم بهم مرض .. ووالدتي تجيب عن التمنيات بتمنيات ، وتقدم الاعذار وتكافح بكرة وعشيا . ولكن سيدة من مريضاتي أبت أن تصدق أن الطبيب الذي كان ملء السمع والبصر والخاطر ، يصبح لا حول له ولا قوة طريح الفراش تحت رحمة الاطباء ، لا يستطيع مد يد المعونة الى انسان.. والحت على سماع صوتي في الهاتف . وجاءني صوتها مرحاً طروباً وهي تقول : « نحن في حاجة اليك يا حكيم ، عرفناك ، زوجي وانا ، منذ القديم . ورأى اطفالي النور بين يديك فكيف تتركنا الآن من غير اخطار ولا استئذان ؟ »

وغلبني الضحك ، قلت : « ما حيلتي يا سيدتي ، لقد انشب المرض في صدري الانياب ، ومنعني من ان اكون قادراً على اسعاف مرضاي واصدقائي » . قالت : « وهل يمرض الطبيب ؟ أنا لا أزال غير مصدقة، لا تغضب ولكني لا استطيع استشارة غيرك .. والمريض بحاجة الى الثقة بطبيبه قبل حاجته الى علاجاته وعقاقيره . »

ولم تلبث أن أقبلت علي في داري يصحبها زوجها ، ورنين الضحكات معطر مثل الازهار التي حملتها « للطبيب المريض » ضحكات اشاعت الحبور والانس في الغرفة الكئيبة ذات القوارير ورائحة الادوية المعروفة الكريهة.

كانت لا تزال على دهشتها ، قالت : « انا استغرب ان يتعرض للمرض طبيب اعلم باصول الوقاية ، وادرى بطرق العلاج من أولئك الذين يزجي اليهم النصح والارشاد . » قلت : « يمر الطبيب أحياناً بمرحلة يتكلم خلالها بوحي من عقله ، ويتصرف بوحي من طبيعته وعاطفته وغريزته ، فهو يحزم بالعلم ويجزم ، ويأخذ مريضه بالشدة والنظام ، فاذا استراح من صداره الابيض ، ونزع السماعة عن اذنيه عاد انساناً كباقي الناس ، يشتهي ما يشتهون ويقع فيما يقعون ، ويحتاج احياناً الى لون من النظام والشدة يؤخذ بهما كما يؤخذون .»

والطبيب بشر مثلكم يخطئ بحق نفسه ويزل ، قد يشبع من الاكلة الفاخرة ولكنه عن المائدة لا ينهض ، وينهي الناس عن التدخين بينما لا تفارق اللفافة شفتيه ، ويسهر ويقسر نفسه على تناسي الاسفار التي غطس بين سطورها سنوات طويلة هي الزهرة من العمر ، والصفوة من الحياة.

وحدثتها عن واجب الطبيب في ان يهب الى اغاثة الملهوف في موهن من الليل ، وصقيع من الطقس ، فينتزع نفسه من الفراش الدافئ ، ويقذف بها في المطر والبرد والريح ، هذا كله ، شاءت الوقاية أم أبت ، مجانب لاصول الصحة ، مضعف عن مقاومة الجسم ومناعته الطبية .

لماذا يمرض الطبيب؟

أثبتت الاحصاءات العالمية ان متوسط عمر الطبيب ادنى من متوسط

اعمار اصحاب المهن الحرة الاخرى كافة ، مثل المحامي والمهندس والمدرس ، وأنه اكثر الناس تعرضاً للاصابة بالاحتشاءات القلبية (الجلطة الدموية وانسداد شرايين القلب) لانه بشر يتألم لما يؤلم الناس ، ويحيا خطر مرضاه واوجاعهم واضطرابهم ، وتظل اعصابه الودية في توفز دائم.. ومع ذلك فمن اولى واجباته ان يحتفظ بهدوء اعصابه وتفاؤله الذي ينقله حتماً الى مريضه ومن يحيط به من أهل واقرباء . والطبيب معرض للعدوى بحكم عمله اليومي واحتكاكه بالمرضى ، وانتقال الجراثيم اليه . وقد تنفع الوقاية ، ولكن مهما يُحِط الطبيب نفسه بالمعقمات فهو في حرب دائمة مع عوامل الامراض ومسبباتها ، ناهيك بأن الطبيب مستنفر طوال الاربع والعشرين ساعة . انه جندي مجهول في معركة لا تكلل هامات المنتصرين فيها أكاليل ، ولا يوضع لها نصب ، الا حمرة الصحة والعافية تورد خد المريض .. وانها لاكليل رائع حبيب لقلب الطبيب ، اثير لديه ، منعش لروحه ، رافع من معنوياته ، مثل كل نصر .

عندما يمرض الطبيب .

ولا يخلو مرض الطبيب من بعض الطرافة ، انه يضيع في « بيداء التشخيص » وتتداعى الى ذاكرته الاسفار الثقال التي غاص فيها عمره اكثره ، والاعراض التي مر بها مرضاه ، تلك التي تشبه من قريب او بعيد ما يشعر به .. ويروح فكره يقفز من هذا العرض الى ذاك ، ومن هذه العلة الى تلك ، مجاهداً لتكوين فكرة محدودة معقولة عن مرضه ، ولا بد لهذه الحشود من المعارف من ان تتصادم وتتزاحم وتتراكب بعضها فوق بعض ، واذا الصداع البسيط يستطيل ويتطاول حتى يصبح التهاباً في السحايا الدماغية ، أو من يدري ، فقد يكون مقدمة لانتان حموي عويص ، أو نذيراً بتمركز أورام سرطانية في الدماغ . واذا طبيبنا المريض — ومن العلم ما قتل ! — يشبه من يفتش عن القلم ، الذي يقبض عليه ، تحت الموائد وفي كل زاوية من زوايا البيت ، وجيوبه ، ويذهل عن يده. وقد يلجأ الى الكتب المفصلة ، والموسوعات يستفتيها ويستنطقها ،

واذا هو يزداد ضياعاً ، ويمعن في الضلال ويغدو فريسة للايحاء السلبي ، فتمر امام عينيه الحوادث المفجعة والنهايات المروعة . وبدهي ان الكتب لا تصف الا العلاج العادي المتداول ، ولكنها لا تذكر ان خير علاج هو الثقة وابعاد الوهم لدعم المقاومة ... المقاومة الطبيعية التي خلقها الله لنا لنحمي نوعنا ، والتي لولاها لانقرضت البشرية منذ بدايتها .

هذه البدهيات التي يعرفها حتى طلاب الطب تهرب من فكر الطبيب المريض كأنما بسحر ساحر . وقد يكون السبب في ان المراقبة الداخلية صعبة شائكة انت بها الخصم والحكم ، الطبيب والمريض ، ومن هنا دأب الأطباء على الاستعانة بزملائهم في ما يصيبهم — وذويهم — من امراض.

ولكن معالجة الطبيب المريض ليست هينة . انك تستدعى لعيادة مريض بالتيفوئيد مثلاً ، فتذهب وانت واثق من انك ستشخص وتصف الدواء فتلقى اذناً صاغية ، وطاعة مطلقة في تنفيذ وصاياك في الحمية والراحة . أهل المريض انفسهم يكونون عوناً لك في تطبيق تعليماتك .

واما اذا كان مريضك طبيباً فانت في طامة كبرى . انه يماريك في التشخيص ، ويماحكك في العلة ، ويجادل في الدواء ، ويخالف في المقدار ، لماذا لا يكون كذا عوضاً عن كذا ؟ اذا لم تزد الكمية الا تخشى من حدوث نزف ، تثقب ، التهاب البريتوان .. الخ ..

واغلب الظن ان الطبيب يغلب عليه الوهم وان تظاهر بعدم المبالاة ، تخطر له انه سيغيب عن الوعي فلا يصحو من بعد ابداً . وتمر بذاكرته حادثة يتيمة من الحوادث التي تقع كل جيل مرة واحدة فتجعله يمتنع عن قبول التحذير ، الم يمت فلاناً سنة الف وتسعمائة وكذا .. على اثر التخدير ؟ قد أكون انا الضحية الثانية ...

وهذه الخشية قديمة ، على ما يبدو ، فقد روي عن الطبيب العربي الاشهر ، الرازي ، انه لما نزل الماء على عينيه (اي اصيب « بالساد » فعمي) قيل له : « ليتك تقدح » (يعني ليتك تجري عملية قدح العين وازالة الجسم الزجاجي) ، رفض ، وعلل رفضه بقوله : « لقد ابصرت من الدنيا حتى مللت . » مع الاشارة الى انه كان فقيراً معدماً ، وفقدانه

البصر سيقعده عن طلب الرزق ، ونحن نخال ان الخوف لا الملل من الدنيا هو الذي زجره .

مرض الطبيب خير للانسانية .

المريض ، اي مريض ، أميل الى ان يكون مرهف الحس ، دقيق الملاحظة ، لا يفوته طيف الابتسامة العابر على وجه عائد ، وتوثر فيه الكلمة الرقيقة ، والهمسة المشجعة ، وينصرف ذهنه الى أمور قد تبدو للصحيح المعافى غير جديرة بالاهتمام أو التفكير ، وهو في حاجة الى الحنان والعطف والمواساة يستعين بها على تحمل المرض ومقاومة العلة .

فاذا مرض الطبيب عانى هذه اللواعج ، مثل بقية الناس ، ولكنه يخرج منها وقد ظفر بمادة جديدة وعلم جديد لا يستطيع اي كتاب طب ان يعلمه اياهما . « وليس راء كمن سمعا » — ان معاناته التجريدية تهبه رأفة بالناس وتواشجاً مع جراحاتهم لا يمكن ان يظفر بهما اذا ظل بعيداً عن هذه المعاناة .

والمهم في هذا الشأن ان يظل الطبيب محافظاً على حرارة تجاربه الاولى ، الا تفقده ممارسة المهنة دفء عواطفه ايام كان خريج كلية الطب ، الفتى الذي فتح عيادة على استحياء . وبكلمة ان يظل للانسانية في قلبه حرمة وتعاطف وتواجد رغم تكرار رؤى المرض والوجع في حياته اليومية .

حادثة وقعت لي وانا طبيب داخلي في مستشفى جامعة دمشق لا ازال اذكرها في حب وتشوق إلى ذلك الفتى المريض روحاً وعاطفة الذي كنته .

ذلك اليوم لم يكن قد مضى على مباشرتي العمل اكثر من اسبوع وجاءني الممرض مع الصباح ، يبلغني ، في لهجة عادية ، ان نزيل السرير رقم كذا قد توفي . لم يكن الممرض مضطرباً ، وكأنه كان يقول لي : « طلعت الشمس » ، اما أنا فقد هرعت إلى المهجع عجلان ، مضطرباً ، واذا « النزيل » مسجى بملاءة بيضاء قد اخفته عن اعين

بقية المرضى   وحسرت الملاءة عن وجهه ووقفت خاشعاً ، غريق لجج من الفكر مزبدة مرعدة . هذا الرأس الذي مخرته الاف من سفن الفكر والعواطف ، هذا الفم الذي صلى، وقبل وبكى.. هذا .. إلى ان انتبهت على ضوضاء الخادم الذي كان يمسح ارض القاعة . ونظرت فيما حولي واذا المرضى قد علقت بي انظارهم . وانسحبت خجلا ، ومضيت إلى حيث فتحت اضبارته وانكببت عليها ادرسها . لقد كان يشكو اليرقان الخبيث . رجعت إلى الادوية التي اعطيت وعاودتني افكار ملحة فظيعة هذه المرة . لو اننا حقناه بكذا ، لو استبدلنا هذا الدواء بهذا .. اما كان في وسعنا ان ننقذه ؟ اما كان يجدر بي ان اعرضه على الاستاذ ترابو واستشيره في العلاجات والحقن . وبقيت في هذا الخضم من الفكر والشكوك اياماً حتى تبين لي ان المعالجة لم يكن عليها غبار ، فاستطعت ، عندئذ وحسب ، ان اخفف من غلوائي واحور إلى بعض الهدوء والرضا .

هذه الحادثة لم تبرح ذاكرتي على الرغم من مضي ثلاثين سنة عليها . ولا ازال كلما غلبتني العادة وتسربت إلى موضوع الرقة والرأفة والحنان من قلبي استذكرها لعل دفء ذلك الفتى يعود إلى قلب هذا الكهل .

الانسانية مدينة بسعادتها الاطباء

تاريخ الطب حافل بالشهداء الابرار الذين رفعوا اسم هذه الصنعة إلى السماكين فالطبيب اندرو قدم نفسه ضحية للحمى الصفراء ، ليضيف إلى ميراث الانسانية كشفاً جديداً . لقد كان الاطباء آنئذ في شك من امر طريق العدوى بهذا المرض واراد ان يثبت لهم ان البعوضة اللعينة (الاستيفوما) هي الناقلة ، فعرض نفسه للسع بعوضة من بعوض الاختبار ، وهو يقول « ان مهمة الطبيب هي انقاذ الانسانية بصورة عملية اما الحديث عن البطولة والتشدق بها فمن لغو الكلام وفضوله. » لقد سار إلى مصيره طائعاً مختاراً لينقذ آلاف البشر الذين

كانوا يتساقطون موتى دون ان يستطيع الطبيب انقاذهم .

ولقد كان الدكتور روينه لاينغ مصاباً بالسل الرئوي ، ايام كان هذا الداء بلوى الانسانية التي لا شفاء منها ، وكان من الضروري ان يلوذ بالراحة والهدوء في مكان مشمس ، صافي الهواء ، حتى تتقوى مناعته وقدرة جسمه الطبيعية على مكافحة الجرثوم ولكنه اختار لنفسه سبيل الشهادة . وعكف على دراسة الداء في نفسه ، في جسده ، آثر ان يتتبع سير هذه العملية الفظيعة التي يقوم بها الجرثوم في نهش رئتيه يوماً فيوماً ، وتغيير اصوات الصدر ساعة فساعة ، وهو يكتب ويكتب ويصف ما يلقاه في دقة تشريحية لا مثيل لها ، لم تترك زيادة لمستزيد . ان كتاب لاينغ في مجلديه ، يعد فتحاً طبياً رائعاً في زمنه ، وقد قال هو عنه : « انا اعلم اني غامرت بحياتي ، ولكن المؤلف الذي اعتزم نشره سيكون عاجلا أو آجلا اهم من حياة انسان فرد مثلي. » ولا يزال واحد من اهم مستشفيات باريس ، حتى الآن يحمل اسم الشهيد المخلد

وقصة الدكتور لازار تكاد لا تختلف عن قصة الدكتور « اندرو » : فقد سافر لازار مع بعثة « ريد » إلى جزر الهند الغربية لتقصي اسباب الملاريا ومعرفة الطرق التي يسلكها الداء اذ ينتقل من مريض إلى آخر . وجمع « ريد » رئيس البعثة رجاله وقال لهم « لو اننا عرضنا انفسنا للسع بعوض قد سبق له ان تغذى بدماء المصابين بالملاريا لاثبتنا ما نفترضه من انتقال الداء عن طريق هذه الحشرة. » فقال الدكتور لازار لمساعده: «انا اتطوع لاستقبال لذعات البعوض . » وكان له زوج وطفلان ، ودواء الملاريا لا يزال في ضمير الغيب ، تضاف إلى ذلك قلة مناعة الاوروبي اذ هو قورن بسكان المناطق المرزغية . وقدم الدكتور لازار جسده للبعوض الفتاك فنفث سمه فيه ، واصيب الطبيب بالحمى وعكف زملاؤه ، اعضاء البعثة، على زميلهم المصاب يسجلون تطور الدواء والادوار التي يمر بها ، حتى قضى لازار شهيد العلم بعد بضعة ايام !

وهكذا أرى ان المرض – طوعاً أو كرهاً – في حياة الطبيب امر ضروري لرفاه الانسانية وسعادتها .

كان باستور العظيم يقول لتلامذته « سلوا انفسكم ، ماذا صنعتم لبلدكم الذي درجتم على ثراه الطيب . فاذا جاء شتاء الشيخوخة فلعلكم ان تترشفوا الهناء في الاحساس الغمر اللذيذ بانكم اسهمتم ، مع المسهمين ، وعملتم مع العاملين بطريقة ما لتقدم الانسانية في سبيل خيرها وسعادتها . »

اللهم اجعل في مرضنا نحن الاطباء اسباب صحة وعافية للمرضى والمأووفين .

العهد المكتوب

كانت في سنتها الرابعة عشرة — في عمر البدر — زهرة ربيعية تستقبل انوار الفجر الأولى ، ذات وجه مخملي رقيق ، وقوام ملتف دقيق ، وتقاسيم واضحة .. في اغفاءة خجلى تنطق بالبراءة ، وكان أول عهدي بها حينما قصدت عيادتي من ألم لم يرفق بهافجاءت مع والدتها ، ويدها على قلبها . رأيت في محياها روعة الجمال حين يتألم ، وعمق الالم في الوجه الجميل ، ولكنني نسيت هذا كله وأنا في صدار الطبيب ، لان الاقدار التي رسمت لنا هذا المصير ارادتنا على أن ننظر إلى الوجوه من خلال ظاهراتها المرضية ، وان نتسمع إلى القلوب بواسطة سماعة معدنية ، فلا نفسر وجيبها بقريحة الشاعر بل بحساب الطبيب .

ولكن « رباح » لم يكن كذلك حينما رآها تخطر في عيادتي بخطواتها الوانية فانه ذو بصر يقدر الجمال ويسير خلفه انى سار . فلم يكد يقع له ان يراها حتى علق بها ، وصبا إلى التعرف اليها ، وأصابه من هذه العاطفة المفاجئة غرام مفاجىء بي ، فغدا لا يفارق عيادتي ، ويصاحبني حين افتح بابها ، ولا يتركني الا في المساء . وكنت في شغل عن تحري اسباب ذلك ، لاسيما وانني ألفت من أصدقائي مثل هذه الغرائب ، ولئن فطنت اليها بعد قليل من الزمن فان « فطنتي » لم تكن قط ذريعة تدفعني إلى الفضول ، ولهذا تركت للزمن أن يكشف لي سر الرجل ، ولم يلبث ان جاء الاوان

وتمرد السر على صاحب القلب المغلق وتسرب من أصابع الكتمان ،

فاذا « رباح » يهرع الي ذات صباح وفي عينيه لهفة وهذا السؤال الخالد:
— من هي ؟
— من ؟
— الفاتنة الساحرة !
فضحكت لهذا الوصف ، ولم أدهش لما رأيته من لهفته فقد كان الفتى في سن الفروسية والاحلام ، في الثانية والعشرين من عمره ، وكان شاعراً بطبعه ، يتذوق الادب ويمارس الكتابة ، ويقرض الشعر في بعض الاحيان ولكن قلبه كان مسألة اخرى ، فهو كالسينما يتسع لكثير من الجالسات والواقفات والمنتظرات ، ولديه أعظم الاستعداد لتبديل الفيلم ثلاث مرات في الاسبوع وقد ذكرته بما أعرفه من طبعه ، فأقسم انه بالنسبة لهذه الفتاة عاشق مدنف ومخلص إلى النهاية، وان حبه شريف، وهو يفكر بها من خلال علاقة العمر كله « الزواج » لا من خلال الساعات والايام .
ولست أكتم ان لهجته قد اقلقتني فقد كان الصدق يقطر منها ، ومعنى ذلك ان زواجه أمر لا مفر منه ، وتصورت ماذا سيكون من أمر طفل في الثانية والعشرين، ليس له مورد ثابت يستطيع الاعتماد عليه، ولا أسرة كبيرة يلجأ اليها حين يصبح رب عائلة مسؤولا عن زوجته وأولاده ومستقبل العشيرة كلها وتصورت بالتالي ماذا سيكون من خيبته حين تذوب قشرة الهوى من هذه العلاقة ، وتظهر اللباب وهي العلاقة المادية بين الازواج وبخاصة حين يكون الجمال وحده كل ما تملك الفتاة من ثروة .
وطبيعي انني لم اكتم عنه شيئاً مما دار في خلدي ، بل صارحته بكل ما جال فيه .. صارحته بأنها غير كفء له ، وأنها جاهلة وفقيرة وان كل رأسمالها جمالها الظاهر .. ولكنني كنت دائماً أكلم جداراً لا يبدي ولا يعيد . ولم يلبث أن جاءني ذات يوم ، فأنكرت صورته بما كان في وجهه من صفرة تدل على سهر البارحة كما يقول أحد الشعراء ، وبادرني قائلا قبل السلام :

– اسمع يا أخي فكرت طويلا بالفتاة – التي بيني وبينك – فرأيت أنها الانثى المثالية التي ما زلت انتظرها ، وأحلم بها في نومي ويقظتي ، وقد قررت الزواج منها ويطيب لي تعليمها وتثقيفها من جديد ، فأنا على ذلك قدير فلتكن دليلي إلى اهلها اليوم قبل الغد لتكون زوجتي أمام الله والناس .

فأجبته بصراحة ، دون ان أهتم لما يمكن ان يكون من أثر قسوتي في نفسه .

– لا .. فتش عن غيري اذا شئت فأنا لا أريدها لك بسبب الفوارق بين ثقافتك وجهلها ، وبين اسرتك واسرتها وستعرف في المستقبل اني في هذا ناصح أمين .

فانتفض الفتى منزعجاً لهذه القسوة ، ولكنه تماسك قليلا ، وأخذ « يحاضرني » في أهمية هذا الزواج بالنسبة اليه ، فزعم ان الحب مع القلة جدير بأن يكفي المحب ، وان المستقبل بيد الله ، وان رزق الواحد يكفي الاثنين ، وانه سيصرف كل جهده إلى تعليمها حتى تغدو زينة لذاتها في عقلها وعلمها مثلما هي زينة في جمالها وكمالها ، وان عمله في سلك التعليم سيسهل عليه هذه المهمة ويهيء له القيام بها على وجه أكمل .

ولكنني لم أقنع بهذه الحجج ليقيني ان أكذب الناس على انفسهم المحبون ، وأنهم كالشعراء ، في كل واد يهيمون ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يقولون . الا ان تصميم الفتى قد اسقط من يدي كل حجة فلما أكدت له انه سيستيقظ ذات يوم فيشعر بالندم على ما فرط منه ، اجابني بقوة : « كلا .. بل سأكون سعيداً إلى آخر العمر . » ثم مضى نحو المنضدة وأخذ قلماً وورقاً وراح يكتب شيئاً ، ثم قدمه الي قائلا : خذ .. هذا عهد بأنني لن اندم على هذه الساعة قط

واليوم

وقد مضت سنوات على تلك الحادثة ، كنت خلالها ارى « رباحاً »

قليلا واسمع عنه كثيراً .

لقد ذبل شبابه ، وأصبحت آماله القديمة أضيق من كفة الحابل ، ولم يعد ذلك الفتى الممراح الذي كان اياه .. ولا أخشى الا ان يكون لمسعاي القديم في زواجه بفتاة أحلامه اثر في هذه القطيعة بيننا ، لان قشرة السكر قد ذابت بعد أشهر قليلة من زواجه ، ورأى الجمال الذي فتنه قبل حين عارياً من سمو الثقافة وكرامة العمل ، وكبرياء المعرفة ، فلم يجد بداً من ان يعلن افلاس هذه التجربة ، ولكن بعد ان انجب طفلين لا ذنب لهما في افلاس تجارب الاباء .

أما أنا ...

أنا الطرف الثالث في هذه المأساة ، فلست أملك منها اليوم الا هذه الرسالة ، وهي العهد القديم الذي كتبه « النادم » وأقسم في الماضي انه لن يندم .

كلا .. لن أمزقها ، فانها عهد « رباح » وكل رباح .. وأرجو أن لا يذهب مغزى هذا العهد أدراج الرياح .

السبت .

لبيت دعوة اسرة المانية لزيارة متنزهات نيو ايزنبرغ وهايدلبرغ وشتوتغارت وكان برنامج الرحلة يغري بها لما سأطلع عليها من تفاصيل الحياة الالمانية ، حياة هذا الشعب الذي نهض من تحت الانقاض ولا تزال تحتل أرضه ثلاث دول أجنبية أو أربع .. ما أغرب ما رأيت ؟ .. لقد خيل الي أن سكان المدن قد خرجوا عن بكرة أبيهم إلى الغابات وضفاف الانهار والريف ترويحاً عن أنفسهم وكان يسترعي انتباهي أن الاسرة تنتقل في هذه المغاني وقد قطرت إلى سيارتها مركبة تحوي كل ما تحتاجه الاسرة من لباس وفراش وأدوات مطبخ وحتى الحمام . وانك لترى الطرقات تغص بأرتال مستطيلة من هذه المقطورات ، وتجد هنا وهناك على جانب الطريق لافتات كتب عليها « صالح للتخييم » فاذا السيارات ومقطوراتها تنعطف متجهة نحو المكان الذي تستنسبه ، واذا رب الاسرة، تساعده زوجته وأولاده، يخرجون خياماً صغيرة ينصبونها وكراسي قابلة للطي والنشر ينشرونها ويغيبون في اللجج الخضراء المؤنسة للعين والقلب حيث ينسون صخب المدن وحياتها الدؤوب المتعبة .. ههنا يتعرف الجار إلى جاره ويستأنس المواطن بالمواطن ، فتقوم حلقات الرقص وتبادل الاحاديث والاغنيات العذبة عذوبة الانطلاق في الريف الجميل .. حتى اذا ملوا المكان نشروا خرائطهم واختاروا مكاناً غيره والاطفال هنا وهنا في أعياد متصلة وحبور غامر .

فاذا طلع صباح الاثنين عاد الرجال والنساء إلى أعمالهم والاولاد إلى مدارسهم والكل نشيط خفيف مقبل على العمل اقباله على اللهو .. والمانيا من هذا كله في بنيان مستمر وتقدم مطرد وخير عميم .

الاسرة التي نزلت عندها يشتغل افرادها جميعاً ، وهي اسرة من ملايين ، فالبنتان احداهما تعمل في متجر والاخرى في صيدلية، وكبراهما لم تتخط السابعة عشرة من عمرها والالماني دؤوب بكل ما في الكلمة من معنى .. فالمخازن تفتح في السابعة ولا تغلق الا حوالي التاسعة في حين أن مخازن لندن تغلق كلها في الخامسة والنصف ، ساعة شرب الشاي .. والانكليزي قد يبلغه نبأ زلزال أودى بمائة الف انسان فلا يغضبه ، ولكنه يقيم الدنيا ولا يقعدها اذا حال حائل بينه وبين شاي الساعة الخامسة ولذلك لا تستغرب اذا رأينا أن ألمانيا أشد ازدهاراً من الدول التي تحتلها جميعاً .

الاثنين .

رجوت اليوم ابنة الاسرة الالمانية التي أنزل عندها أن تصحبني إلى السوق لشراء بعض الاشياء. هذه الفتاة كانت طالبة في جامعة نوتنغهام ، وهي تتقن الانكليزية .. وانطلقنا إلى السوق هي وابني رفيقها في الدراسة وأنا .. كان ثلاثياً مطرفاً ، والتخاطب أطرف . يتحدث البائع فتنقل الفتاة كلامه لابني بالانكليزية وينقله لي هو بالعربية . . ذلك اني لم أفز من دنياي لسوء الحظ الا بثلاث لغات أجنبية ضعيفة : الفرنسية ، والكردية ، والتركية .. لم يخطر لي أن لغة ، هي الانكليزية ، ستكون وسيلتك إلى التخاطب مع أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية .

دخلنا عدة مخازن .. كانت تستهوينا الواجهات التي تعرض فيها البضائع على نحو هو الغاية في الذوق وحسن الترتيب وأحاول أن أفهمها أني أود أن أشتري من هذا أو ذاك ، ولكنها تشرح لي أن من الخير لنا أن نمضي رأساً إلى المخازن الكبرى ذات الطبقات المتعددة ، وأن من العبث اضاعة الوقت في التعجب أمام الواجهات الجميلة ،

وأن في المخازن الكبرى كل ما تشتهي النفس وتلذ العين .. وأبديت عجبي من قولها هذا وقلت لها كيف تكون البضائع في المخازن الكبرى أرخص والنفقات وأجور العمال والمستخدمين وأجور المحلات الفخمة ؟ .. فابتسمت وقالت لي صبراً ، سترى بعينك مصداق قولي .. انظر إلى هذه الواجهة .. ان زوج الجوارب النسائية من هذه الماركة بثلاثة ماركات .. احفظ هذا السعر وهيا بنا ..

ووصلنا مخزناً كبيراً . محشر حقيقي .. الحركة دائمة دائبة .. ترى لو أدخل الحرث بن حلزة إلى هذا المخزن فما عساه أن يقول وهو الذي وصف وشك رحيل حي صغيرة من أحياء العرب بكل هذا الوصف .

اجمعوا امرهم بليل فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصهال
خيـل خلال ذاك رغـاء

وجوه ، وجوه ، الاف الوجوه، ابتسامات ، همسات . ولفتت نظري فتاتنا إلى سعر الجوارب النسائية من الماركة نفسها تصور كانت ماركاً واحداً للزوج .

وقفلنا راجعين وتعمدت أن نستقل عدة أنواع من وسائل النقل . المترو ، الباص . هذه الوسائل المنتظمة وما اعتاده الناس من نظام رائع تجعل المدينة صغيرة والتنقل من اقصاها إلى اقصاها هيناً ميسوراً

واسترعى انتباهي ان كثيراً من النساء يتركن شعر سيقانهن على حاله وسألت ابني ان يستفسر من الآنسة مرافقتنا عن سر ذلك ، فابتسمت وقالت ان السبب رغبة الرجال انهم يظنون ان المرأة التي ليس لها شعر انما تكون باردة جنسياً ولذلك فان كثيراً من الفتيات يلجأن إلى مراهم مغذية من شأنها انماء الشعر واطالته

العقلية النسوية لا تتغير . انهن هناك يطلن شعور سيقانهن ليوهمن الرجال انهن الحرارة والتدفق وهنا يثرن على الشعر لان الرجال يرون فيه شيئاً لا انثوياً وسبحان مبدع العقول ..

ولكن سواء كن هنا أو هناك فانهن لا يبلغن فتنتهن كاملة الا اذا تركن أنفسهن على السجية . . بيد انه من الصعب الاقتناع أن المرأة قادرة على ذلك وهي عرضة للاغراء ، اغراء المصانع وأذواق الرجال .. تعال اقنع من لا صدر لها ألا تضعف امام منظر الثديين الا صطناعيين وصاحبة الشفة الشاحبة ألا تجن بأحمر الشفاه .

طبيب ام «خاطب» ؟

السبت .
— آلو ، دكتور .
— نعم .
— الدكتور ؟
— نفسه .
— ظننتك غير شخص .
— لا ، أنا هو .
— هل عرفتني ؟
— كلا.. لم تضع لي ادارة الهاتف — مع الأسف — جهاز تلفزيون — ينقل لي طيف مخاطبي .
— أنا السيدة فلانة .
— تشرفنا ... هل من خدمة ؟
— هل تدري لماذا تلفنت (هتفت) اليك ؟
— لا ، وما يدريني ؟
— أريد نصيحتك في أمر .
— تفضلي .
— طبيب شاب، أسمر، مربوع من عائلة طيبة وشريفة، يخطب ابنتي ، انه متخرج من كلية الطب هنا .. واساتذة كلية الطب اصحابك . وقال لنا أن عمه صديق حميم لك . نسيت اسمه . هل عرفته ؟
— لا بعد ؟

— لم أشأ اعطاءه قولا قبل استشارتك فأنت ملاذنا .
— طيب ، أنا أسأل لك عن اخلاقه وارد عليك خبراً .
— أي ، الله يطول عمرك .
— شكراً
— مع السلامة .
— وقف ، وقف دكتور ارجوك لحظة .
— خير ان شاء الله ؟
— ولكن هل عرفته ؟
— لا
— اذن كيف تسأل عنه ؟
— مثلما تسأليني من غير أن تعرفي اسمه أنت .
— صحيح ، ويلي ما أغباني .

السؤال الدقيق

الثلاثاء .

أحد القراء يطرح سؤالا قديماً ولكنه دقيق اقترن نشاطه الجنسي مع الجنس الاخر بتمنع هذا الجنس عليه . وهذه الظاهرة أوقدت في قلبه الذعر ، خاف من أن يكون هذا انما يعني ضعفاً جنسياً . وهو مقدم على الزواج ولذلك فانه متهيب لحظة الامتحان مشفق على رجولته من ان تظهر امام رفيقة العمر مشوشة معطوبة بينما يريدها هو معطاء كالكرم المتكسرة على اغصانه من ثمر ، قادرة مثل النهر ايام الفيضان .

وطبيعي اني أجبت قارئي مطمئناً وهذا هو الواقع ولكن الرسالة في حد ذاتها حملتني على التفكير

القاعدة في الرجل الشاب أن يكون سليماً جنسياً ، والامراض الجنسية في بلادنا ، ولاسيما العجز ، قليلة لاسباب كثيرة لا مجال لبسطها وتفصيل الحديث عنها هنا ولكن القصور كائن في الثقافة الجنسية .

وانا شخصيا اعتقد اني اسهمت اسهاماً متواضعاً سواء في المجلة أو الكتب بنشر الثقافة الجنسية الصحيحة، هذه الثقافة، مثل كل ثقافة ، لا يمكن أن تقتصر على القراءة والاطلاع وابتلاع الصفحات الكثيرة انها تحتاج أيضاً إلى فهم وتمثل . فاذا ظللنا في مثال القارىء الذي أوردناه في هذه اليومية ، رأينا أن خشيته وهواجسه، لو انه فكر وتدبر، لا تقوم على أساس ، طالما انه يشعر بكل رجولته عندما ينفرد بنفسه ان الحياة الجنسية رخيصة حساسة مثل « سلبي الفيلم » . اي نور مهما ضؤل يدمغها وينطبع فيها . وفي بعض الاحيان يحترق الفيلم حرقاً ان الحياة الجنسية كذلك . ان نشاط قارئنا اقترن بالتمنع . التمنع في لحظة معينة ، قد يكون رهبة ، أو تهيباً أو خجلا .. لا يكفي العلم ، ينبغي التمثل والهضم واعمال الفكر ثم ممارسة التمارين .. وذلك كي تكون لنا حياة موفورة هانئة وادعة والزواج يتيح لشبابنا فرصة التمارين وتمثل المعلومات الجنسية .

اليوم ظفرت بمديح لم أظفر بمثله عمري ، وانها لنشوة أين منها نشوة القائد الظافر يؤوب من الجبهة بأكاليل الغار ، أو نشوة الشارب الثمل بالخمرة المعتقة .. وأنا انسان فقدت عادة الطرب بالمديح منذ أمد بعيد ، ذلك لاني أراه نوعاً من الافيون اذا أحبه الحاكم فلعل في نظامه هنات يود ان يسترها أو يتعامى عنها ، واذا أحبه الضعيف فلانه يجب أن يستر ضعفه .

وقد قال الشاعر

واذا امرؤ مدح امرءاً لنواله واطال فيه فقد أطال هجاءه

لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه

وقد اعتدت كلما سمعت انساناً يمدحني أن انتظر طلباً يوجه الي .

وأما في هذه المرة فقد كان المادح المقرظ انساناً بسيطاً بساطة الازهار والاشجار ، في العقد السادس من عمره ، سبق له أن طوف في عيادات الاطباء في حلب واللاذقية وباع — لا كما يقال قولا — ما فوقه وما تحته ولكنه باعهما أو بعضهما فعلا . فما وجد الراحة على الرغم من أدمانه المسكنات واختلافه على العلاجات الحديثة المتنوعة . وأخيراً استدان وباع مرة أخرى وتوجه إلى الجامعة الاميركية في بيروت ، تستحثه شهرتها وذيوع صيتها ، ومكث هناك تحت العلاج شهراً وبعض الشهر ، فلم تزدد حاله الا سوءاً ، وتنفسه الا ضيقاً .. وترك آخر الامر الجامعة الاميركية كسير القلب ، مهيض الجناح ، مستسلماً لاحدى الراحتين اليأس

ولكن اليأس المطبق هو الموت ، وهكذا ظل في قرارة نفسه ركن فيه ذماء من أمل دفعه إلى أن يعرج على دمشق لمشاهدة معرضها الدولي قبل أن يسافر نهائياً إلى مسقط رأسه يندفن فيه مع أمله في الشفاء .

ونزل ضيفاً على ابنته المتزوجة من دمشقي ، وتشاء الصدفة أن أعود رب البيت الذي كان يشكو علة ألمت به ، واذا السيدة ربة البيت ، تسألني معاينة والدها الشيخ ، وترجوه أن يبوح لي بشكاته ، واذا هو يجيبها موهناً محزوناً .

– دعيني يا بنية وشأني ، لقد يئست ، وآن لي أن أيأس من الطب والاطباء .. واني لعلى يقين من أن هذا الضيق سيظل آخذاً بخناقي حتى يقضي الله امراً كان مفعولا ، حتى يقضي علي ..

ولكن السيدة الصبية تلح الحاحاً ، فينزل على ارادتها بعد أن عرف أن الطبيب الزائر هو الدكتور القباني الذي طالما سمع به وترقب رؤيته .. ويكشف لي عن صدره ، فأكب على فحصه ، وأصف له علاجاً تشاء الصدف ايضاً ، أو قل تشاء القدرة الالهية أن يتجرعه ليلته تلك ذاتها ، فما يطل الفجر حتى ينهض مشرقاً معافى ، ويهرع إلى الهاتف

– آلو ، دكتور .

– نعم

– صباح الخير يا حكيم .

– صباح الخير .

– اسمح لي ، أنت انسان كما علمت في غير حاجة إلى مديح ، ولا دعاية ، وما أخال طبيباً اشتهر في طول البلاد وعرضها مثلما اشتهرت أنت ، ولكن ، بعد أن ظفرت بنوم لم أنل بعضه طوال العشرين سنة الماضية ، وبعد أن عاد تنفسي طبيعياً مثل بقية عباد الله لا يسعني الا أن استشهد بالآية الكريمة « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين . »

كل هذا بصوت ينبعث من أعماق القلب ، ندياً ، رؤوماً ، مليئاً بالعرفان ..

ولقد كان لهذه الجملة الصغيرة اثرها العميق في نفسي ، أين منها تلك المقالات الطويلة التي حررها الكتاب في مدحي وتعداد مناقبي

أبعد هذا يحق لنا ، نحن الاطباء ، أن نشكو وقد قيض الله لنا صناعة تستطيع أن تدخل كل هذا الفيض من الهناءة على قلب انسان ؟

حادثة ورسالة ..

تقول في رسالتها انها في العشرين من عمرها ، وانها على جانب عظيم من الجمال ، ولكن جمالها كان شؤماً عليها .. فقد حدث انها اضطرت ذات ليلة الى حضور حفلة ساهرة في بيت رفيقة لها بمناسبة عيد ميلادها ... وطالت السهرة ، ومر الوقت سريعاً حتى تجاوز مواعيد وسائل النقل المشتركة كالباص والترام ، فاضطرت الى طلب سيارة تكسي بالتلفون ..

ولكن السائق بدل طريقه .. فقد أغراه الليل والوحدة المنبعث منها ، بأن يطير بها الى منعطف يؤدي الى البساتين ، ولم ينفعها انها صرخت بكل قوتها واستنجدت وهددت ، فوقعت المأساة بعد ان اغمي عليها ، ولم تعد الى رشدها الا والسائق يفتح لها باب السيارة قرب دارها ثم يطير هارباً في الظلام .

لقد فقدت أعز ما تملك فتاة فهي الان نهب للشعور بالقهر والعار ، وانها في هذه الحالة حائرة بين الانطواء على هذا الشعور وبين المطالبة بعقاب المجرم ، لانها تعرف المكتب الذي يشتغل فيه — ولكنها تخشى الفضيحة ، وتعرف ان سجنه او موته او اي عقاب ينزل به ان يعوضها ما فقدت . وهي بعد على ابواب الزواج وقد تفقد خطيبها في وقت قريب ، فتفجع في قلبها فوق فجيعتها بشرفها فما هو الحل لهذه المشكلة ؟

في رأيي ان لوم صاحبة الرسالة على الانسياق وراء متعتها العاجلة باطالة السهر ، او على قلة حذرها بالسير منفردة مع سائق سيارة عمومية لا يفيدها على الاطلاق ، بل يفيد لذاتها في المستقبل .

وقد نصحنا الشاعر « النابغة » فقال :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقي صولة المستأسد الحامي

كما ردد هذا البيت ابو الاسود الدؤلي عندما حج مع امرأته — وكانت جميلة — فبينما هي تطوف بالبيت اذ عرض لها عمر بن ابي ربيعة، فاتت ابا الاسود فأخبرته، فأتاه ابو الاسود وعاتبه قائلا :

واني ليثنيني عن الجهل والخنا
وعن شتم اقوام خلائق اربع

حياة واسلام وبقيا وانني
كريم ومثلي قد يضر وينفع

فشتان ما بيني وبينك انني
على كل حال استقيم وتظلع

فقال له عمر : لست أعود يا عم لكلامها بعد اليوم . ثم عاد فكلمها فاتت ابا الاسود فاخبرته فجاء اليه فقال له :

انت الفتى وابن الفتى واخو الفتى
وسيدنا لولا خلائق اربع

نكول عن الجلى، وقرب من الخنا
وبخل عن الجدوى وانك تبع

ثم خرجت تطوف وخرج ابو الاسود مشتملا على سيف، فلما رآها عمر اعرض عنها هارباً فتمثل ابو الاسود .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له

وتتقي صولة المستأسد الحامي

أما حل مشكلة السائلة المسكينة، فليس لها الا مصارحة خطيبها، اذا كانت واثقة من حبه اياها، فالحب يغفر الزلات وبخاصة مثل هذه الزلة التي لا يد لها في الوقوع بها . وعليه وحده ان يقرر ما اذا كان يجب ملاحقة السائق بنشر الامر في المحاكم او تركه ستراً للفضيحة .

في بريدي اليوم كتاب من شاب في بيروت يقول : ان الشعر يغطي جسمه ، ويرجو ارشاده الى علاج اذا دهنت به النواحي المشعرة ، مات الشعر فيها موتاً ابدياً ، وبقي جسمه لدنا ناعماً خلواً منه .

وليست هذه الرسالة بالاولى ولا بالاخيرة . اذ لا ينقضي اسبوع حتى اجد في بريدي كتباً ورسائل يستنجدني اصحابها الشباب ، ويلتمسون العلاج الداخلي والخارجي للتخلص من الشعر في وجوههم او في صدورهم. وكلما مررت بدكان حلاق ، رأيت الشباب يقضون الساعات الطوال بين يدي الحلاق ، ينتفون الشعر ويحتالون عليه بالمقص تارة ، وبالخيط والملقط تارة اخرى تذكرت هذه الرسائل ، وتذكرت انقلاب المفاهيم في عصرنا الحاضر ، ولو علم هؤلاء – وقليلا ما يعلمون – بان الانثى تهوى الرجل العارب المشبوب القوي ، وان الشعر في وجهه وجسده يشعرها بقوته وبرجولته . لو علم هؤلاء ذلك لتركوا اجسامهم على علاتها ... لانها من مفاخر الرجولة وهي شبيهة بعلل السيوف التي امتدحها الشاعر بقوله :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

كلمة « أحبك » .. خير من ألف علاج

كان صديقي الدكتور « س » من أطباء المدرسة القديمة وكانت صداقتنا تعود إلى عشرين عاماً خلت منذ أن استقر في مدينة زحلة الصغيرة . كنت ازوره بين الفينة والاخرى في طريقي إلى لبنان فاقضي واياه ساعات ممتعة يحدثني خلالها بأمور كثيرة عن الأشخاص الذين يعرفهم هو أو نعرفهم كلانا ، وفي المرة الاخيرة حدثني عن شخصيتين جديدتين هما جون ولويز

كان جون مزارعاً كبير الجسم هادىء الطبع خجولا لا يكاد يعرف في العالم سوى مزرعته الواقعة في ضواحي المدينة ابتدأ حياته ولديه خمسون رأساً من الماشية، وبعد مرور عشر سنوات كان لديه الفا رأس وعندما بلغ الخامسة والاربعين كان من الاثرياء .

أما لويز زوجته فكانت فتاة مثقفة تخرجت في المدرسة ثم التحقت بالعمل في المطعم الكبير بالمدينة لتخدم الزبائن . وتعرف عليها جون عندما كانت في العشرين من عمرها لقد اعتاد التردد على المطعم لتناول قدح من القهوة ثم لازمته هذه العادة حتى أصبح لا يتخلف عن زيارة لويز يوماً واحداً .

كانت الفتاة تحادثه في شتى المواضيع وهو صامت ينظر اليها ويهز رأسه دون أن ينبس ببنت شفة وأخيراً ينهض ويقول يجب أن أذهب إلى العمل إلى اللقاء وبقيت الحالة هكذا ثلاثة أشهر

استطاع جون في نهايتها أن يقول للفتاة لويز اريد ان تتزوجيني .. صمتت الفتاة قليلا ثم قالت جون ربما قبلت ولكن يجب أن تمهلني يوماً أو اثنين حتى افكر بالامر . واحنى جون رأسه ثم قال : يجب ان اذهب للعمل .. إلى اللقاء ..

وبعد اسبوعين تزوجا وقضيا شهر العسل في احد الاماكن القريبة وعندما عادا إلى المزرعة انهمكا في تجديد المنزل واضافة بعض الغرف اليه . وبعد مرور بعض الوقت علم الدكتور كينر ان لويز لم تكن على ما يرام . ثم دعي بعد ذلك إلى المنزل لرؤيتها كانت تشكو من صداع شديد، وعندما فحصها لم يتمكن من الوصول إلى معرفة نوع المرض الذي تشكو منه وفي المرة الثانية سألها عن كيفية حياتها مع زوجها فقالت ان جون خير زوج يرضي المرأة ولكنه قليل الكلام وانت تعرف ان المرأة تحب الكلام وتريد من زوجها أن يحادثها دائماً. انني أريد ان اصبح قوية مثل جون .

مر على ذلك ثمانية عشر شهراً. وفي صبيحة أحد الأيام هب الدكتور « س » من نومه على قرع شديد على باب المنزل وعندما فتحه رأى جون يقف هناك ويشير نحو السيارة قائلا « ان لويز في حالة سيئة جداً يجب أن تفعل شيئاً من أجلها يا دكتور » وحمل الرجلان المرأة إلى مستشفى الطبيب ذي الاسرة الاربعة كانت في حالة ضعف شديد فأعطاها انبوباً من البلازما تحسنت على أثره . وفي المساء عادت حالتها إلى الانهيار . فأخذ جون يبكي كالطفل وهو يقول « يجب أن تتحسن .. يجب أن تتحسن ! »

واعطاها الطبيب اثناء الليل انبوبين آخرين من البلازما وكانت تتمتم قائلة : « لست قوية جداً » فقال لها الطبيب « ولكنك قلت انك تحبين أن تصبحي قوية مثل جون » فردت قائلة « ان جون ليس بحاجة الي ولو كان كذلك لقال لي بنفسه ذلك. » فقال : « انه بحاجة اليك وهو يحبك حباً جماً ولو لم يقل لك ذلك بنفسه »

وفي المكتب قال الطبيب لجون انها لا تريد ان تتحسن ، فقال

الرجل : « ما رأيك اذا اعطيتها من دمي ؟ ان لدي ما يكفي لنا الأثنين »
فسأله الطبيب قائلا « هل تحب زوجتك ؟ » فقال : « كيف لا احبها وأنا اعطيها كل شيء والبي جميع طلباتها » فقال الطبيب « ان هذا لا يكفي . يجب أن تقول لها ذلك . » فقال جون : « ولكني لا أعرف كيف أقول لها ذلك . »

وبعد برهة دخل الطبيب إلى المختبر وأخذ عينة من دم الزوج وفحصها ثم قال له : «سنعطيها من دمك. » ولما ابلغها ذلك تبسمت وشعرت بالارتياح .

وابتدأت العملية بعد ان وضع الطبيب مائدة صغيرة بجانب سرير المرأة وحجب بين المائدة والسرير بواسطة ستارة من القماش . ووضع الزوج يده الغليظة فوق المائدة وقال لزوجته « سأعطيك الان من دمي حتى تتحسني. » فقالت « ولماذا تعطيني من دمك؟ » فقال : « لماذا ؟ لانك زوجتي وأنا أحبك »

ووضع الطبيب ابرة في شريان الزوجة ومد الأنبوب إلى المائدة ووصله بزجاجة البلازما لا بشريان الزوج ! أي لم ينقل لها دمه بينما وضعت الممرضة ابرة اخرى في شريان الزوج فأوصلها الطبيب إلى زجاجة فارغة ..

همست الزوجة قائلة « انني احبك يا جون فهل تحبني أنت كذلك ؟ » فقال لها « انني احبك يا لويز وهذا الدم برهان على ذلك وأرجوك أن تتأكدي من كلامي » ووضع الطبيب يده على نبض المريضة وبدت على وجهه امارات السرور .. لقد عاد القلب إلى حالته الطبيعية . واخيراً سحب الابرة من يد المريضة ويد زوجها وقال « لقد وقعت المعجزة ودبت الصحة في جسم زوجته . »

ونهض الطبيب والممرضة وتركا الزوجين معاً ولما دخلا إلى غرفة المختبر سألته الممرضة عن الأمر ولماذا لم يعط المريضة من دم زوجها فقال « ان المعجزة قد تمت على كل حال ان دم الرجل لا يوافق

زوجته ولو اعطيناها منه لقتلها في الحال. انها لم تكن بحاجة إلى دم جديد بل كانت بحاجة إلى عطف زوجها وحبه . انها تود ان تسمعه يقول لها احبك . لقد كان كلامه هو الدواء الذي انقذ حياتها ! »

«حوّل اختصاصك !»

دخلت غرفة المعاينة تحمل طفلا وتجر طفلا .. كانت في العقد الثالث من العمر .. راحت تسرد قصة طويلة استغرقت ربع ساعة ونيفاً وأنا على ذلك صابر كاره .. وتتلخص القصة بأنها وضعت طفلها عند جارة لها كي يتاح لها مشاهدة فيلم سينمائي ولما رجعت علمت من أخيه ان ابنة الجيران تهاونت في حمله فوقع الطفل من يدها .. ومنذ ذلك الوقت والولد عرضة لنوب اختلاجية تشنجية تكاد تقضي عليه .

قمت بفحصه فوجدت من الضروري ارساله الى الطبيب الشعاعي لتصوير جمجمته خشية وجود كسر داخلي فيها يسبب ضغطاً على الدماغ .

كتبت لها كتاب توصية وأرسلتها ولكنها تلكأت وقالت : قبل ان اذهب اود ان تفحص ابني الثاني هذا ، انه يشكو كيت وكيت ..

ولما همت بالخروج طالبتها الممرضة بالاجر أجابتها « لماذا تتداخلي فيما لا يعنيك ؟ الطبيب نفسه لم يطالبني . . » قلت لها « هوني عليك ، لا تحتاج القضية لاثارة الاعصاب .. ادفعي لها فقط أجور معاينة الطفل الواحد ، أما معاينة الثاني فمجانية (عالبيعة) .

– شو القصة تشليح يا دكتور .. والله بركب الترام وبالباص وما بدفع عن الاثنين ..

كنت في حالة نفسية مرضية لا تساعدني على الاخذ والرد ، فغمزت الممرضة ان تختصر الموضوع وان تخلي سبيلها ، وترضى من الغنيمة بذهاب هذه الثرثارة التي أخذت اكثر من نصف ساعة من وقتي وانا الذي لا أشتغل في عيادتي الا اربع ساعات فقط في اليوم .

وانهمكت في عملي ونسيت الموضوع .. ومضى نصف ساعة .. وبينا انا منصرف الى معالجة احد المرضى اذا بالباب يطرق بعنف ، وقبل ان يؤذن للطارق رأيت السيدة ذاتها تهجم علي وقد سنت لسانها اكثر من المرة السابقة وشحذته حتى غدا كالسيف الماضي . « الى اين اردفتني يا دكتور .. أغلب ظني انك متفق معه .. يخرب بيته ابن .. »

ـ من هو ؟

ـ الدكتور الذي ارسلتني لعنده

ـ وما له ؟

ـ انه يطلب ١٥ ليرة سورية اجرة تصوير هالرأس الصغير .. ويلي علي. ولد صغير حاملته على ايدي بدو منه ١٥ ليرة ، أنا طول عمري بركب واياه في الترام والباص وما بدفع عنه .. ثم راحت الكلمات تتقاذف من فمها وأنا مشدوه .. ثم وجدتني أسرع الى الهاتف وأدير قرصه على الرقم ٩٦ وأهتف ببرقية مستعجلة الى ولدي سامي الذي يتابع دراسته في اميركا للاختصاص بطب الاطفال .

•

ولدي سامي

« اذا اردت ان تموت جوعاً فتخصص بطب الاطفال معالجة الاطفال اصبحت مجانية مثل ركوب الترام .. وقد تضطر الى دفع مبالغ من جيبك لاسكاتهم .. برضاي عليك حول الاختصاص الى البيطرة » .

والشيء بالشيء يذكر

كانت الساعة السابعة مساء ، وهو الوقت الذي يجتمع فيه شمل الاسرة ، ويتحلق افرادها حول المذياع او الحاكي للاستماع الى قطعة موسيقية من الهيات فيروز او تحليقات بيتهوفن بانتظار ضيف عزيز او بانتظار بدء السهرة .

وفجأة رن جرس الهاتف ، وتكلمت ممرضتي

ـ تنتظرك أمرأة مريضة يا دكتور ..

ـ أحالة عاجلة ؟

ـ تقول ذلك وقد قصدت اليك من أقاصي سوريا

وسرعان ما كنت أطوي بسيارتي الارض طياً في طريقي الى العيادة بالرغم من انصرافي عن ممارسة العمل بعد ظهر كل يوم .

كانت هناك امرأة نَصَف ، ادركت للنظرة الاولى انها اقوى من الخطر ، ولكنها اوهام الخريف طرقت بابها فلاذت بباب عيادتي وتلقتني المرأة لهيفاً ، وراحت تصف لي أسقامها واوجاعها وما تلاقيه في نهارها من العناء ، وفي ليلها من الارق طوال عشر سنوات ، فلم أجد بداً من الثأر لراحتي بكلمة فقلت :

ـ أما كان الاحرى ان تصبري حتى الصباح فتكون المدة عشر سنوات وفوقها يوم آخر ؟

فقالت :

ـ انني جئتك من مسافة بعيدة ، وأنا في لهفة الى رؤيتك والمعالجة على يديك وكنت اعلل نفسي بهذه الزيارة منذ سنة ولكن الظروف لم تساعدني .

كانت تتكلم وترفع في وجهي بالاشارة يديها وهي ملأى بالحلي والاساور الذهبية التي تكاد تغطي الساعدين الى قرب المرفقين . وقد تدلى على صدرها عقد من اللآلئ لا يوضع الا في الحفلات ..

رحت افحصها وأدقق في أمرها ثم افهمتها مرضها وما يجب عليها ان تتقيه وتتجنبه وكيف تتناول العلاج. ولما شعرت ان الزيارة شارفت على النهاية ، رجعت تلح بان اكتب لها ورقة خاصة بأصول استعمال العلاج – رغم درجه في الوصفة – وأخرى بما يجب عليها عمله ، وثالثة الى زوجها أوصيه خيراً ليترفق بها ، ولا بأس بأن ابالغ في وصف المرض وخطره كي تأخذه الشفقة عليها . ولما فرغت من أمرها توقفت هنيهة وكأنها لا ترغب في المسير فقمت إلملم اذيالي وأحمل حقيبتي ايذاناً بالانصراف ، ولما طالبتها الممرضة بالاجر – بعد ان نفد صبرها – تلكأت ثم تثنت وفتحت حقيبتها لتخرج منها ليرتين سوريتين (ما يعادل ٢٠٠ فلس) دفعتهما بتلكؤ وتعاظم.. قالت لها الممرضة ان أجور المعاينة «كذا» وقد اعلمتك بذلك قبل ان نطلب الدكتور ونصرفه عن قراءاته ومجلته ، ثم انك قرأت الاسعار في اللوحة المثبتة على الباب قالت :

– يا لله مشيها .. الدكتور رجل انساني .

ولما طال الاخذ والرد ، وكنت قد اصبحت قرب الباب ، رجعت الى ممرضتي قائلا لا تجادليها ، اعيدي اليها الليرتين وسجلي بأن المعاينة مجانية فاستشاطت غضباً وقالت :

– لست بحاجة الى كرمكم .. يا تشليح يا بلاش ؟ ..

قلت : – نعم اما ان تكوني موسرة فتدفعي الاجر كاملا ، واما فقيرة معدمة فيجب والحالة هذه العطف عليك ومعالجتك مجاناً .

قالت : – انني في نعمة ورخاء ولله الحمد ولست بحاجة اليكم ، ولكنني أساوم ، وما كانت المساومة في يوم من الايام عيباً .

قلت سيدتي . لسنا في سوق الخضار لتساومي ، وليس الوقت بملك لي لاضيعه في أخذ ورد ومساومة ، خذي دراهمك ، وانصرفي واعفيني من الجدل عافاك الله من كل مرض !

فاستشاطت غضباً وأبت الانصراف قائلة انها ليست بحاجة الى عطفنا والى تسامحنا .. ثم تكرمت بنصف ليرة اخرى .

فصفعت الباب خلفي ووليت هارباً قبل ان انفجر ورحت أضحك لوحدي .. وشر البلية ما يضحك ، وكان ان رآني زميل جاء يستفسر عن صحتي فتعجب لضحكي فما عرفني بدون سبب .

قلت : مرت بي حادثة ، والتاريخ يعيد نفسه ، فقد مررت بحادثة تشبهها وقعت قبل خمس وعشرين سنة لصديقنا الدكتور الشهيد مسلم البارودي .

كان – رحمه الله – الزم لي من ظلي ، درسنا معاً وحزنا الشهادة معاً ثم رأينا ان لا نقطع حبل صداقتنا ، ففتحنا عيادة مشتركة مع المرحوم الاستاذ الدكتور عبد القادر سري ..

ولما كنا قليلي الخبرة والتجارب في الحياة ، فقد تلقينا نصيحة من والد الدكتور الشهيد الح علينا باتباعها .. قال لابنه مخاطباً :

– اياك ان تساوم او ان تطلب اجراً على عملك الانساني ، فانت طبيب يجب ان تتقبل ما يدفعه لك الزبائن كهبة فلا تطرف عينيك للمال او لتعداده ، بل ضع ما يدفع لك في جيبك ، واشكر المولى على نعمائه ...

وفي اصيل يوم من ايام صيف عام١٩٣٢ وكان قد مضى شهران على بدء عملنا ، كنت عائداً من وظيفتي في الجامعة السورية ، فأسرعت الخطى لاستطلع جلية الخبر ، اذ شاهدت المرحوم الدكتور البارودي ثائراً هائجاً مائجاً .. والممرض يتسلق سلماً في محاولة لانزال لافتة العيادة التي تعلن عن اسمائنا . واستطعت بعد جهد ان أهدئ من ثائرته واروض أعصابه لاستوضحه الخبر .

قال رحمه الله : جاءني فلاح يشكو رمداً في العين فعاينته ثم نظفتها ومسحتها بالادوية المطهرة وكتبت له قطرة يستعملها في داره ، وقد تطلب مني الفحص والتنظيف وتكرار الاجوبة على الاسئلة المتوالية ساعة وبعض الساعة ، تكرم صاحبنا ففتش كيس نقوده وفتله وبرمه وفتحه ثم راح يعد خمسة فرنكات (٢٥ مليماً) .. تصور .. ربع ليرة فقط

دفعها متشامخاً كأنه يكتب لي ضيعة. ولكنني تذكرت وصية والدي فسكت على مضض وبينما كنت منهمكاً في فحص مريضة أخرى ، عاد يدفع الباب بفظاظة ويدخل مزمجراً وهو يشتم .. قلت ما بك ؟ قال : انكم ايها الاطباء عصبة محتالين همكم تشليح الناس . فربت على كتفه استرضيه وأسأله عما به .. قال ان الصيدلي يطلب ثمناً للقطرة ثلاثة ارباع الليرة بينما دفع ما يترتب عليه في العيادة ومن واجبي ان اجهزه بالقطرة الشافية. فكتمت غيظي ثم مددت يدي الى جيبي واخرجت له دراهمه نفسها قائلاً : هاك مالك . اننا لا نتقاضى اجراً من الاصحاب ولا من الفقراء

فاستشاط غضباً واحتج .. فهو غير محتاج . لقد جاء ودفع الثمن .. وهو يأبى ان يفهم ان الـ ٢٥ قرشاً — او مليماً — لا توازي اجر المعاينة فكيف بالقطرة والعلاج ، وهو يأبى ان ارد له المبلغ ويأبى ان تكون لي عليه منة فاعالجه مجاناً ، ويأبى ان يخرج من الغرفة والمرأة مسجاة امامي تنتظر انهاء هذه المسرحية الغريبة، بعد ان صبرت على فظاظته ودخوله دون استئذان..

وانتهى الدكتور رحمه الله الى اتخاذ قرار بترك المدينة، وترك الطب. جلس الى مكتبه يكتب كتاباً يستفتح ابواب السفر الى الحجاز للعمل طبيباً موظفاً . وأرسل الكتاب لتوه قبل ان يبدل رأيه او يوثر عليه ابوه وأصدقاوه .

وها هي الحادثة نفسها تتكرر بعد مرور ٢٦ سنة فهل لي ان أفكر بالهجرة ؟ كلا لقد ولى عهد الشباب وخبت روح المغامرة وحب الاسفار ، فليس لي الا ان اعالج مشاكلي من هذا النوع بقليل من الضحك وكثير من الصبر ..

جزاء الاحسان

ترددت طويلا قبل ان ادفع بهذه القصة إلى المطبعة ، فقد خشيت بعد كتابتها أن يفهم منها انها تحذير لاصحاب المروءة من البذل . ثم رأيتني ارسل بها إلى النشر حينما رجحت أن تكون درساً لبعض الناس يتعلمون منه أن يردوا الحسنة بمثلها ان لم يقدروا على أحسن منها.

والحكاية ان صديقاً جاءني ذات يوم يطلب إلي أن أسهم في عمل خيري وهو انقاذ رجل ذي عيال ضاقت به سبل العيش فاضحى لا يجد قوت يومه ولا قوت أطفاله . ولم يرحمه القدر مما هو فيه بل استعدى عليه شخصاً من الاشرار أوحت اليه عداوة سابقة بينه وبين الرجل فتربص له في ظلام الليل واخذ يطعنه بالسكين حتى قطع امعاءه وتركه بين الموت والحياة .

قال الصديق ان الرجل مسجى الآن في غرفة الاسعاف بالمستشفى فهل لك باسعافه بعملك أو بمالك ، أو بما لك من صداقات ، لعل زملاءك الاطباء يعتنون به ويؤمنون حاجاته ومنها نقل الدم الذي لا يملك من ثمنه قرشاً فضلا عن ثمن العلاجات ؟

لم أكد اسمع هذه القصة المؤثرة حتى بادرت إلى ترك اعمالي وذهبت أشرف بنفسي على عملية الانقاذ التي قام بها جراحون مختصون ، فاقتطعوا من امعائه ما تلف منها وما تمزق ، ونقلوا اليه الدم ، وكان ما أراد الصديق واكثر .

وقد تعهده الاطباء خلال دور النقاهة حتى شفي من جراحه بعد

شهر وعاد سليماً معافى . ولكن العملية تركت في بطنه علة دائمة لا يستطيع معها حمل الاثقال ، أو القيام بأي عمل يتطلب جهداً وعزماً .

وعاد إلي الرجل ذات يوم لا ليشكرني بل ليطلب إلي ايجاد عمل يعتاش به ، فزودته ببعض الرسائل إلى من أعرف من الاصدقاء وهتفت إلى بعض الاخوان . فكان الجواب واحداً .

هل يحمل شهادات ؟ كلا .

هل يقرأ ويكتب ؟ كلا .

هل يستطيع ان يكون عاملا ؟ كلا انه مريض واذن ماذا تريدنا أن نعمل به ؟

وكنت خلالها أقوم بتشييد دار صغيرة لي فرأيت أن أكلفه بحراسة البنيان ومراقبة سير عمله تلقاء اجر حسن يكفيه مؤونة السؤال ، والحقت ابنه الكبير بورشة هندسية يتعلم بها ويعمل ، ويتناول عن عمله مبلغاً لا بأس به هكذا اعتقدت انني ساعدت هذه العائلة بما استطيع .

وفي ذات يوم كنت أفاوض الدهان على طلي جدران الدار فطلب مني ألفي ليرة ، فلم أساومه لاعتقادي ان مساومة العمال تعود بالخسارة على صاحب العمل ، ولم اطالبه الا بأن يكون ذا ضمير يعمل بشرف ويتقن عمله ويؤديه على أكمل وجه . ثم خرجت لبعض شأني ، ولما رجعت ، وكان خفق نعلي غير مسموع ، وهو من (الكاوتشوك) سمعت وكيلي الامين الذي أشرفت على عملية انقاذه من الموت وبوأته مركزاً هو غير أهل له . سمعته يقول للدهان : « ان صاحبنا الدكتور لا يساوم ، اصلحك الله فلو زدت الصفقة وجعلتها ثلاثة آلاف لربحت انت ، ولحسبت حسابي ، انها لا تضيره .. بضع معاينات وبس .. »

فنكصت على عقبي وأنا أردد قول الشاعر :

اذا انت أكرمت الكريم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم تمردا

مساكين الاطباء .. مأكولون ، مذمومون ...

لو ان متاعب الطبيب تنتهي حينما يخلع عن جسمه ثوبه الابيض ، ويغلق على عيادته الباب ، لكان له في مثل هذه الساعات القليلة التي يقضيها بين أسرته او بين أصحابه ، معوان على الاستجمام وتجديد النشاط والرضا عن نفسه وعن الدنيا ...

ولكن متاعب الناس لا تنتهي ، ولا سيما الاطباء . ان الطبيب مسؤول امام المجتمع بما لو كلفت به الجبال ، لناءت باثقاله الجبال .. فهو لا يملك من وقته الا ما يسمح به الناس ، بل ليس له وقت معين للاكل او للنوم ، ما دامت الطوارئ التي تستدعيه لا تعترف بوقت معين تفاجئ به الناس .

وهو بعد ليس في نجوة من النقد واللوم حين يقع خطأ ما ويكون المريض مسؤولا عنه لا الطبيب ، وقد تتعلق سمعته وماضيه وحاضره ومستقبله بكلمة صغيرة تقع مسؤوليتها على القدر ، او على قلة الحذر ، او على مصادفة لا يد له في تدبيرها وترتيب ملابساتها ، فاذا كل ما بناه في حياته بجهده وصبره وتضحيته ينهار أمامه كبناء من الرمال .

في مثل هذه الحال وجدتني ذات يوم حين اقبلت مساعدتي (ممرضتي) تدعوني الى مقابلة شخص ، قالت : إنه يرفض ان ينتظر دوره . وكان الشخص شرطياً تبدو على وجهه اللهفة وفراغ الصبر ، ولم اكد استقبله حتى بادرني قائلا :

— عفوك يا دكتور اذا ازعجتك ولكن الامر هام

فأجبته مصطنعاً الرقة كي اخفي سخطي على اقتحامه دور الاخرين .

– خير ان شاء الله ..

– هناك حادث.. نعم.. انا شرطي من مرتبات مخفر القصاع ، لقد اضطررت ، نعم اضطرني حبي اياك ان اهمل الاوامر كان اسمك على الجريدة ، والاوراق في طريقها الى قاضي التحقيق ، هربت من وظيفتي لاحذرك يا دكتور انك من اهل الفضل السابق ..

لم افهم ما كان يقصد اليه الشرطي بهذه المعميات فانتظرت حتى هدأت نفسه ، وقلت بهدوء :

– ولكن اية جريدة تعني وما دخلي انا مع قاضي التحقيق ، اي بالاختصار ما هي المسألة ؟

– المسألة ان قاطع التذاكر الذي يعمل في أحد باصات خط القصاع عثر على لفافة تركها احدهم او احداهن .. فتحها فاذا في داخلها جنين ميت والمهم ان الجنين ملفوف بجريدة كتب عليها اسمك مما يدل على انها خرجت من عيادتك . وقد جئت انبهك لتأخذ حذرك .

تنفست الصعداء اخيراً ، وابتسمت لهذا الفدائي البطل ، وشكرت له ما تجشمه من مشقة في هذه الغاية ، ثم ودعته وانا أطمئنه بأن المسألة تافهة .

ولم تمض ساعة حتى استقبل ضيفاً آخر .. هو قاطع التذاكر نفسه . قال : لقد افترصت فرصة ، بعد ان تملصت من الاستجواب والاستنطاق فجئت اليك مهرولا لان واجبي يدعوني الى تنبيهك ..

قلت له ببساطة نعم .. تنبيهي الى انك وجدت صرة فيها جنين ميت ملفوف ببضع جرائد وعلى احداها اسمي .. شكراً لك والف شكر الحكاية بسيطة ولا علاقة لي بها ..

فبانت على وجه الفتى علائم الخجل الممزوج بالدهشة وقال : الحمد لله على انك علمت .. وما كنت لازعجك لولا انني محب لك معجب بأحاديثك الاذاعية وتوجيهاتك ووصاياك ..

– بارك الله فيك .. وشكراً ، ولا عدمت الاوفياء المخلصين .

ولم البث ان استغرقني العمل فنسيت هذه الحادثة ، الا من بقية اسئلة اخذت تتلامح في ذهني بين فترة وفترة . هل في الامر جريمة ؟ اجهاض ؟

ولم يشغلني ان اسمي قد زج في هذا الموضوع ليقيني ان حياتي في هذه الفترة خالية من الجنوح ، ولا اهمية لوجود جريدة تحمل عنواني في الحادث ، لان عيادتي مفتوحة للناس ، وفي بهوها اكداس من الصحف اليومية ، قلما أجد وقتاً لفضها ، فلا يبعد ان يكون احد المجهولين قد امتدت يده الى شيء منها دون ان يعيره احد اي انتباه .

ورأيتني انسى الموضوع حينما احتواني منزلي واصبحت بين افراد اسرتي ، ولكن جرس التلفون وجرس الباب لم يلبثا ان اخذا يحملان الي التحذير تلو التحذير ، من أصدقاء ومعارف تطوعوا جميعاً لتنبيهي الى الامر بعد تسرب الخبر الى مديرية الامن ، وأنا ارد عليهم بأن المسألة بسيطة ، حتى كانت خاتمة المطاف قرب منتصف الليل مع قاضي التحقيق نفسه ، وهو صديق كريم ، يكن لي المودة وأبادله احتراماً باحترام .. قال :

ــ لا تؤاخذني .. انني محرج ، فقد وصلتني قضية حشر بها اسمك ، وهي امامي منذ ساعات ، ولكنني حائر بين واجبي وبين صداقتك ، فجئت كي نتدبر الامر ..

ــ المسألة بسيطة ، فلا تضطرب وأنا تحت تصرفك في اي وقت تشاء ..

وفي صباح اليوم التالي كنت عند قاضي التحقيق نفسه ، ورأيت ان اخرجه من حيرته ، فقلت له :

ــ سندع الصداقة جانباً لفترة من الوقت نعين فيها العدالة ..

فتنفس الرجل الصعداء وقال :

ــ لم اشك لحظة بنبل خصالك ، ولكن القضاء ــ كما تعلم ــ لا يكتفي باقتناع الوجدان بل يطلب البراهين الحسية .

ــ صحيح ، وسأبذل ما في طوقي لمساعدتك .. ولكن اين الصرة ؟

ــ هاكها ..

كان الجنين مشوه الخلقة ، ناقصاً ، يدل تكوينه على انه لم يكمل الستة اشهر من حياته ، اما الجريدة فمكتوب على هامشها « الى الدكتور ... » وقد تولتني الحيرة والدهشة لحظات من زج اسمي في هذا الحادث

واستغرقني التفكير ثم رأيتني أقرأ دون شعور ما كان مكتوباً في الجريدة .. حوادث محلية قدوم استقبال اخبار المجتمع ، وتنبهت فجأة الى ان هذه الحوادث بعيدة عن مجتمعنا الحالي .. اين وقعت ومتى ؟ ولمع ذهني خاطر فلم البث ان دققت في تاريخ العدد ، فاذا هو يعود الى اكثر من عشرة اشهر اي الى ما قبل تكون الجنين باربعة اشهر على الاقل . فرأيتني ابتسم .. ولما نبهت صاحبي قاضي التحقيق الى دهذا الاكتشاف كان يبتسم بدوره ويودعني الى الباب وهو يقول : مع السلامة يا حضرة الظنين ..

فأرد عليه: من كان منا مثلي غنياً باصدقائه ومحبيه لا يبقى ظنيناً اكثر من دقائق معدودات .

شعر وادب و... وجع بطن !

اني بحكم صناعتي لم اعد أحيا كما يحيا عباد الله الهادئين الوادعين ، اذ لم يعد يتاح لي الوقت لاستمع الى نغمات بيتهوفن وشوبان ، بل استبدل ذلك بشكاة المرضى المزمنين ، وأنين المتألمين المساكين ولم أعد أستطيع ان اختلس من وقتي فرصة أحلق بها في أجواء الخيال فأمتع النفس بآمال عذاب طالما داعبتني وانا في مستهل الحياة .

وبينما يكون الناس نياما يستمتعون بدفء الفراش ، مستسلمين الى وادع الاحلام ، اراني أقرأ رسائل السائلين والمستشيرين من القراء ومن مستمعي الاذاعة . ولطالما قطع علي لذة الاستراحة جرس الهاتف اللعين ، لاستمع الى مريض صديق – واي مريض عادني فلم يصادقني ؟ – فجميع مرضاي اصدقاء واحباء .. يطالعني صوت المريض بالهاتف ليسألني عما يفعل في مسهل تناوله قبل عشر دقائق فلم ينجح. وهو يطلب النصح ، أيلجأ الى كأس من العصير او فنجان من الحليب النيء .. واذا هممت بركوب سيارتي لموعد ، فيشهد الله ، انها تقف اكثر من مرة ، لا لانها خالفت السير ، او اصابت عبداً من عباد الله ، بل ليستمع هؤلاء العباد (الاوادم) الى جواب عن اسئلتهم المتلاحقة يشفي غليلهم او يرفع الاذى عن اجسامهم ، ولا تنفع معهم الاعذار ولا ينفع الرجاء بأنني على موعد واني على عجل من امري ..

اعترضني احدهم يوماً ليشتكي بطنه التي تؤلمه ، بعد ان اتحفني بالاجر العظيم ، وهو اسباغ الالقاب الفخمة على شخصي الكريم .. فانا منقذ الانسانية ورسول الرحمة الخ .. فلما فرغت جعبته وصل الى ما

يريد من وصف الآمه وعذابه .. فطلبت اليه ان يتمدد ارضاً لافحصه ، ففغر فاه دهشة وعجباً واستنكر هذه الطريقة في الفحص ، فقلت له : «أتنكر علي طريقتي في فحصك على رصيف الشارع ولا انكر عليك طريقة طرح أسئلتك في الطريق وليس بيناك وبين عيادتي الا خطوات او بعضاً من الوقت ؟ »

فان كانت الاستشارة في الطريق مجانية فلتكن استشارتك في العيادة مجانية ايضاً ، على ان تعفيني — عفاك الله — من هذا الموقف المخزي ، موقف الفاحص لاسانك ونبضك ومشاكلك أمام جمهور المتفرجين والمستطلعين .

استهوتني اليوم جلسة شعرية أدبية تضم نخبة من شعراء وأديبات هذا البلد ، فوطدت العزم على انتزاع نفسي من زحمة اعمالي لامتع الروح فاحلق كما يحلقون في اجواء الاوهام والاحلام ، واستمتع بالشعر كما يستمتعون فاحاول ان لا اقول ما يقولون ، ولا افعل ما يفعلون .. فكانت النتيجة ان انقلب الوضع وغدوت محاضراً في الامراض والطب ، بعد ان جئت مستمعاً للشعر والادب .

ثم تحلقنا حول مائدة ضمت اطايب الطعام ، ويشهد الله انني لم أعرف لها مذاقاً .. لان واجبي كان يقضي على ان احلل للحاضرين ما في اللقمة من فيتامينات وفوائد ، وواجبهم هو الاستماع هو ان يأكلوا ويستمرئوا ما يأكلون وان يطربوا لما يسمعون ..

اطباء ولكن..

كنت على موعد هام في الثامنة والنصف من ذات مساء ، فأغلقت عيادتي قبله بنصف ساعة ، وتهيأت للذهاب الى البيت ولكن جرس التلفون دعاني .

— آلو .

— نعم .

— دكتور .

— نعم .

— كيف الحال ؟

— عال .

— والصحة ؟

— بخير .

— والاولاد ؟

— بخير وعافية .

— دخلك قل لي يا دكتور الابرة متى آخذها ؟

— حسبما هو مكتوب بالوصفة .

— طيب والقطرة قبل الطعام أم بعده ؟

— اذا كنت تأكل بعينيك وترى بفمك فخذها قبل الطعام أو بعده أو على الريق .. لا فرق فكله واحد ..

ولم أصدق كيف تخلصت من هذا « الصديق » الذي يخرج الانسان من جلده . ولكني لم أكد ابلغ اول الدرج وأهم بالنزول حتى استوقفتني

انفاس لاهثة وصوت متقطع يقول : هه .. الحمد لله شفناه. ثم قالت صاحبة الصوت : عدم المؤاخذة يا دكتور جئناك متأخرين ..

فقلت ببرود ، وأنا أعرف ان مرض الزائرة يمكن تأخير النظر فيه الى الغد بل الى الف سنة لانه ليس مرضاً دائماً وانما هو أوهام الاكابر ووسواس الاغنياء .. قلت :

– نعم الوقت متأخر الليلة تعالي الغد .

– الغد ؟

– نعم ، فالى اللقاء .

– ولكنني تعذبت وجئت .

– نعم ولكن متأخرة .

– ما ذنبي وقد كان عندي ضيوف ؟

– وانا عندي الليلة ضيوف فالى الغد ..

– يا دكتور ..

– لماذا لم تستأذني من ضيوفك ؟

– ولكن هذا عيب ..

صحيح ولهذا اريد ان الحق البيت كي لا ينتظر ضيوفي طويلا . ولكن قلب الطبيب لم يلبث ان تمرد على غضبي ، فعدت افتح عيادتي وبودي أن اسامح هؤلاء الذين يطالبون ان نحترم « توافههم » ولا يفكرون في اننا مثلهم نملك على الاقل حقنا في ان تكون لنا حياة اجتماعية كبقية الناس .

دخلت علي غرفة العيادة شماء ، ثابتة خطواتها ، رشيقة حركاتها ، تفصح عن النبالة والصراحة ايماآتها. وما ان استقر بها المجلس على المقعد أمامي ، حتى بادرتني قائلة — من غير ان تمهد لحديثها أو تقطعه بلعثمة أو جمجمة — انها في العشرين لم تتجاوزها .. متزوجة منذ أربع سنوات .. ومع ذلك فعندها ثلاثة أطفال اصغرهم يدب نحو شهره الرابع ولما يكد .. وهي حامل للمرة الرابعة ..

وبعد ؟

وبعد فانها سمعت من ينصحها باستشارتي لاعطيها زرقة (ابرة) تخلصها من حملها ثم أنها — من بعد ذلك — تريد ابرة أخرى تقيها شر الحمل خمس سنوات تتفرغ خلالها لتربية أطفالها الثلاثة تربية صحيحة قويمة .

قلت :

— يؤسفني يا سيدتي أن أقول لك ان الطب على الرغم من القفزات الرائعة التي قفزها في مختلف الميادين عاجز عن بلوغ هذا الهدف الذي تحسبينه هيناً ليناً . أؤكد لك الا وجود لمثل هذه الزرقات قطعاً .

واذا معنى من التعجب والاستغراب يطفو على وجه السيدة الصغيرة ، ثم لا تلبث أن تقسم لي بأنها ما جاءت الا بعد موافقة زوجها وانها كتوم للسر لن تذكر قصتها لانسان ، وما علي الا أن أطمئن اذا كنت اخشى المسؤولية .

قلت :

– أنا لا أخشى المسؤولية ، لانني من أنصار تنظيم النسل ويشهد بذلك كتابي « أطفال تحت الطلب ومنع الحمل » . ومن نافلة القول أن تربية طفلين أو ثلاثة تربية صحيحة تجعلهم أقوياء خير من الاتيان بعشرة لا يستطيع الابوان تعهدهم وتغذيتهم وتعليمهم ، واذا هم في غد ليس بالبعيد عالة على الاهل والوطن.. عبء على انفسهم وعلى الآخرين . والقضية في الاصل ليست قضية « كم » بل قضية « كيف » ونوعية حسنة . ولكني أعود فأؤكد لك ، أن الطب عاجز عن اجهاض انثى بابرة .

كيف أفسر لها هذا الامر ؟ كيف أفسر لها أن الزرقات السامة التي قد يكون من نتيجتها الاجهاض انما هي نوع من تسميم جسم الحامل، والاجهاض – اذا حدث – معناه تسمم العضوية كلها .

كيف أفسر لها أن المرأة الحامل اذا كانت سليمة الجسم صحيحة، تسلحها الطبيعة بقدرة على اعادة التوازن العضوية التي يحاولون بالزرقات أن يبتروا توازنها لاسقاط الجنين ؟ ان اسفاراً تكتب وينبغي أن تكتب لتفسير هذا كله . ولذلك فقد قصرت الشرح وتابعت أقول .

ان الطريق الوحيدة للاجهاض هو عملية الجرف (الكورتاج) وأنا ادلك على طبيب يقوم بمثل هذه العمليات هو الدكتور (....)

وأنا على استعداد لتزويدك بتوصية اليه .

قالت : اتعرفه ؟

– طبعاً . وكيف أوصيه بك واكتب له من غير سابق معرفة وقديم صلة.

فأعادت علي السؤال كأنها غير مصدقة .

– هو حقاً من معارفك ؟ ومنذ متى انتما صديقان ؟

قلت ضاحكاً :

– هل هذا تحقيق ؟

– سمه ما تشاء ، ولكنني أرجوك أن تبين لي نوع الصلة التي تربط بينكما .

– أفرضيها زمالة أو ... صداقة .
– لا ، أنا متأكدة من أنك تخفي عني امراً . واطمئنك اني لن اتزحزح من مكاني هنا حتى اعلمه .

وعادت بي الذاكرة الى سنين خلت كان هذا الطبيب في ورطة جراحية وانتدبني قاضي التحقيق أنا والدكتور منير السادات خبيرين لتقرير مسؤولية صاحبنا أو براءته .

وأذكر أن صاحبنا قد وفد على عيادتي يومذاك متوسلا أن انقذه وأساعده ، فكان ان رفضنا ، الدكتور سادات وأنا ، أن نتقاضى أجور الخبرة التي تقع في مثل هذه الاحوال على المتهم . ونحن وان قمنا بواجبنا الا ان تقريرنا انقذ مستقبله وخفف من وقع الحادث .

ومنذ تلك الحادثة وأنا ارسل اليه بطالبات الاجهاض البائسات فيتقاضى من كل واحدة مائتين وخمسين ليرة سورية عداً ونقداً . فضحكت ساخرة لما أوجزت لها قصة صلتي بالرجل ، وانهالت علي بوابل من الاسئلة الذكية .

– وهل هذا عمل أخلاقي ؟
– وما عساني أن أفعل ؟ أليس خيراً من ان ادع هاته النسوة تذهب الى قابلات جاهلات يعرضن حياتهن للاذى أو الموت ؟
– ولماذا لا تجريها أنت ؟
– لا أحب هذا العمل ، ولا أملك الادوات الجراحية اللازمة .. ان لي ميادينى الاخرى في الطب العام وفي الصحافة .. واجد فيها رزقي وسعادتي اذ اقتصر عليها .
– هل تظن أن صاحبك المجهض يذكر لك بالعرفان كل ما اسديت اليه من خدمة وأرباح ؟
– أغلب الظن أن نعم ، لماذا تسألين هذا السؤال ؟
– اذن فاعلم أن صاحبك هذا صديق لزوجي . وقد أرسلني اليه منذ أسبوع لاجراء عملية « التجريف » ولكني كنت خائفة فسألته عن زرقة أو علاج يجنبني العملية من غير أن اتعرض لخطر التخدير .

وذكرت له أن صديقة لي راجعتك انت فنصحتها خير نصيحة وزرقتها ابرة أنقذتها من بلواها وحفظت عليها صحتها . واذا هو يتدفق مثل السيل العرم في سبك وشتمك وأوكد لك أنه لم يترك في قاموس اللغة صفة مقذعة .. الا والصقها بك .. فاشمأزت نفسي منه وقررت المجيء اليك فاذا بك تمتدحه .. فيا له فارقاً بين خلقين !

قلت :

– لا يزعجنك ذلك. ان الزي الشائع عندنا– نحن الاطباء – أن نتقاذف الذم حتى فقدنا ثقة المرضى وأصبح الميسور منهم يفضل الاستشفاء في اوروبا أو حتى القطب الشمالي على مراجعة طبيب من سورية .. ان في الثقة بالطبيب الخطوة الاولى نحو الشفاء .. والطب أخلاق في الدرجة الاولى ومن بعدها يأتي العلم والمعرفة .

والحقيقة أن الانتقاء لكلية الطب ان يلتفت الى هذه الناحية أول ما يلتفت ، ويختط قواعد ثابتة تنفي عن مهنة الطب العابثين والمائعين وذوي الاخلاق الدنيئة . الطب شرف وانسانية وسمو واذا لم يكن كذلك فهو بالبيع والشراء أشبه.

لا اجر ولا ثواب..

بعد ظهر هذا اليوم أحسست بوهن وانحطاط في جسمي .. أنا أكرس بعد الظهر عادة للقراءة والكتابة وتسيير أمور المجلة واختيار الصور والموضوعات لها .. ولكنني كنت هامداً هموداً لم آلفه، فاستلقيت في فراشي ومنحت جسمي اجازة على الرغم من أن ذهني لم يقبلها ، فراح يخطط المشروعات لتوسيع المجلة وجعل من يفيدون من جهد اسرتها المتواضع أكثر وأعم ..

وهبط الليل ، وسادت تلك الدهشة الوادعة التي تعتري الدنيا أمام هذه الظلمة المتصاعدة من الشرق ، كأنما تزحف زحفاً على الافق الغربي المشتعل ، وبينا أنا أتذوق الهدوء المسائي اذا بالهاتف يرن .. كان المتكلم صاحب فندق اعتاد أن يستعين بي لمعالجة نزلائه المرضى .. فاعتذرت اليه عن عجزي وحاجتي الى الراحة ، ورجوته أن ينشد طبيباً آخر .. فأبدى أسفه مرتين ، مرة لحالي الصحية واخرى لخسارتي مبلغاً لا بأس به لان المريض غريب وفد الى البلد في أمر عاجل ناصابه هذا العارض الذي حال بينه وبين عمله وهو على استعداد .. الخ . كأن كونه غريباً يجعله شيئاً مغرياً بالنهب ، أو كأني أتربص الدوائر بالغرباء .

ولا تكاد تنقضي عشرون دقيقة حتى يعود جرس الهاتف الى الرنين.. هذه المرة كان على الطرف الآخر من الخط صديق له علي دالة .. ان لديه صاحباً يريد طبيباً فلم يجد هو خيراً مني . ولم ينفع معه اعتذار لان دالته وصداقته تتيحان له الالحاح والرجاء .. قلت « لا حول ولا قوة الا بالله .. اردت أن أخلد الى الراحة يوماً واحداً » ولبست على عجل .

وما أن فتحت الباب حتى كان صديق الصديق أمامي ينتظر .. وخطر لي أن استعلم عن الاصابة عن الالم ، حتى أصرف ذهني الى البحث في ناحية معينة ، وأعمل الفكر فيها وأصنف الاعراض والامراض قبل وصولي .. واذا الرجل يغمغم غمغمة غامضة ولا يحير جواباً .. قلت في نفسي « أعد السؤال عليه لعله لا يفهمك من المرة الاولى .. » قال : « لا أدري سترى بعينك وتسمع بأذنك .. »

وأوقفت السيارة حيث أشار علي . قرب بستان . وترجلنا . افتح . ليس معه مفتاح . ولبثت أنتظر وأستمع الى صرخة من هنا ورد صرخة من هناك .. « هاتوا المفتاح . ولك يا فلان افتح الباب » .. ومجيب يصيح تحولوا الى الباب الثاني في الطرف الشمالي .. ووقع اقدام تركض شمالاً ، واخرى تخب يميناً حتى هون الله علينا ودخلنا البستان الذي لم يكن يضيء شعابه ومجاهله الا ضوء القمر وحده .. فصرنا نتخبط على غير هدى وقد يكون رفيقي أخبر بمواطئ قدميه وأما أنا فكنت أغوص في الوحل مرة ، وأطأ غصناً جافاً يلسعني تارة اخرى واعصابي لا تملك الا ان تنسلخ أكثر فأكثر من استجمام السويعات الهادئة المنسية التي قضيتها بعد الظهر وتتوتر وتتوفز وتنشد .

وخطر لي ، تهدئة لنفسي ، أن أعد خطاي ، فعددت ثمانمائة خطوة وصلنا بعدها الى مكان استقبلنا فيه صياح نساء وعويل ، وعادت الاصوات : « افتحوا الباب ، هاتوا الفانوس ، طريق يا جماعة طريق.. » ودخلت آخر الامر احدى الغرف ، فرأيت حشداً من النساء ملأن المكان ، أفسدن كل ذرة من الهواء النقي فيه ، وفي وسط الغرفة شخص مسجى بملاءة بيضاء ، من فرعه الى قدمه .. الجو كله يبعث على الانقباض والتشاؤم والانزعاج ، رفعت الملاءة فوجدت شاباً غاب لونه وأمسى كالشمع ، ربطت عيناه بمنديل وحشي أنفه بالقطن ، جسسته واذا هو بارد كقطعة من ثلج .. لا ريب أنه قد انقضى على وفاته ست ساعات أو أكثر .

ما معنى هذا ؟ انهم حتماً على علم بوفاته والدليل في هاتين العينين

المعصوبتين ، وهذا القطن وما أسمع من ندب وعويل .. لماذا لم يخبروني من قبل ؟ .. ولماذا جاؤوا بي اذن ؟ هممت بالانصراف وأنا على وشك أن العن الساعة التي فكرت فيها باختيار هذه المهنة .. ولكنني عدلت تحت تأثير خاطر ومض في رأسي كالبرق ..

وسألت النسوة .

ــ من عصب عينيه ؟

ــ أمه ..

وسألت الرفيق .

ــ ولماذا احضرتني اذن ؟ وماذا تريدني أن أصنع ؟

فعاد يغمغم غمغمته الغامضة .

قلت :

ــ منذ متى بدأ مرضه ؟

الغمغمة هي الجواب.

وعكفت على فحص المتوفي من جديد .. وهي مهمة شاقة لا يوفيها الكلام حقها من الوصف . ان فحص مريض ، حتى ولو كان مرضه معقداً ، أمر حبيب الى قلبي .. انني معه أمام المجهول ، أمام هذا الترقب البديع ، والامل القريب البعيد في ان أوفق ، ويقيض لي ادخال العزاء الى نفس تعاني .. ولكن فحص جسم ميت بارد قلبه ، تحريكه وهو يكاد يكون متصلباً ، وعشرات العيون الباكية تنظر اليك نظرات فظيعة بما أبحت لنفسك من انتهاك لحرمة الموت ، أو بما أجبرتك مهنتك عليه من حركات ليست من طقوس الموت في شيء وفوق هذا كله يجب أن يعمل فكرك في البحث عن سبب الوفاة . هل هناك جناية يريدون ان يكون حضوري تغطية لها ؟ من يدري ان فحص الميت يتطلب جهداً ووقتاً ومعرفة أكثر من فحص الحي ؟

ولما خرجت من الغرفة نطق رفيقي .. طرح السؤال الذي كنت انتظره .

ــ هل نستطيع دفنه غداً يا دكتور بهذه الوصفة التي معنا ؟

ونظرت الى الوصفة ... انها من طبيب لم يكتب عليها اسم المريض ، وانقضى على تاريخها أكثر من شهرين .

وازدادت شكوكي فأسرعت الخطى نحو مخرج البستان ورفيقي ورائي وأنا أقول له .

— البقية في حياتك .. خاطرك .

قال :

— وورقة الوفاة .

— اطلبوها من الطبيب الذي كان يعالجه ، أو من الطبيب الشرعي؟

— كم تريد ؟

ما هو الاجر الذي استحقه يا ترى ؟ لقد رفضت تلبية طلب صاحب الفندق لمعاينة انسان حي يقدر جهدي وأتعابي . ولبيت طلب ميت ارهقني جسمياً ونفسياً .. فما هو الاجر ؟

وركض ذهني الى مجلس ضمني مرة وبعض الوجهاء . كانوا يثنون على اريحيتي وانسانيتي .. ولابراز هاتين الخصلتين — كأنما هذا ضروري — راحوا يعقدون مقارنة بيني وبين الطبيب فلان الذي جيء به لفحص مريض لم يلبث أن توفي من اللمسة الاولى .. ولكنه — الطبيب — لم يقبل أن يتزحزح من مكانه قبل قبض اجرته كاملة .

كان أهل المتوفي في اعسار ، وعدوه بالدفع غداً فظل على عناده وانحلت المشكلة بأن رهنوا عنده اسوارة ذهبية تخص ارملة الفقيد . ومضى المجلس يجرح الزميل بالسنة حداد .

قلت لرفيقي : لا أستحق أجراً وعوضي بالاجر على الله .. وللمتوفي الرحمة ولكم العزاء .. وفزت من الغنيمة بالخروج من البستان . وتذكرت الغريب القادر على الدفع .. وهذه التنفيعة الصداقية .. والطين والقلب المنقبض من رؤية الموتى وسماع العويل ..

العامة تقول : حج حجة الكلاب لا أجر ولا ثواب .

جاءتني مريضة ايرانية الاصل تزوجت من رجل سوري ولم يلبثا سوية أمداً طويلا بل تخطفته يد الموت لتترك المرأة ولا سند لها في غربتها. وكانت الصدمة عنيفة واثرها على أعصابها أكثر عنفاً حتى انها لازمت البكاء وانفردت محاولة الانتحار ..

فتلقفتها أيدي الرحمة ، أيدي الاطباء الذين راحوا يعالجونها بالعقاقير والمواساة فذهب عملهم ادراج الرياح ، ولم يفدها في رأب صدعها ورد عقلها ، واعادة الثقة والهدوء الى نفسها ..

وكان أن جاءني بها بعض من يثق بي قائلا : « دكتور ، نحن نعلم انك لم تختص بالامراض العقلية ولكننا نؤمن بخبرتك التي لا تخطئ بالنفوس وما ينتابها وتدري سبل الخلاص منها .. واعلك تنقذ هذه المسكينة مما وقعت فيه بعد أن فشلنا في تطبيبها عند الاخصائيين . »

فداخلني سرور ، بل غرور كبير — قاتل الله الغرور انه شر ما يبتلي به الانسان ! — فقلت بكل اعتداد : « سأحاول .. »

ورحت منذئذ اعالجها بالادوية تارة ، وبالايحاء تارة ، وبالتشجيع تارات ، يحفزني إلى ذلك عاملان أولهما كونها غريبة لا معيل لها في بحر حياة صعبة وجدت نفسها على حين غرة وحيدة تتخبط بين أمواجه دون بريق من مركب نجاة . وثانيهما أملي في النجاح بقضية عسيرة تتطلب الصبر والاناة وبعد النظر والخبرة بطوايا النفوس ونزعاتها على اختلاف المشارب والاهواء والاجناس والتربية .. وهي محاولة صعبة في ميدان جال فيه غيري واخفق، فما عاد ليشجع على

المحاولة فالنجاح . وانطلقت أتعب عليها بسخاء – ان جاز التعبير – فلم أبخل باحدث العلاجات ، أقدمها طوراً من خزانتي وادفع ثمنها من جيبي اطواراً ، ومر عشرون يوماً جاءتني على اثرها باسمة الثغر بعد أن غيض الزمن بسمتها خلال عامين طويلين ، جاءتني تقول أقسم عليك بالله يا سيدي الا ما اعطيتني يدك أقبلها لقد رددت إلي روحي وعقي .. فأنا مدينة لك بكل شيء .. وقد جئتك بهدية متواضعة أرجو أن تقبلها مني والا تخيب رجائي هذا ، انها سجادة صغيرة من صنع يدي تذكرني بها بل تذكر امرأة أتتك حطاماً فأعدتها بشراً سوياً تذكرها كما ستذكرك كلما هبت عليها نسائم الصباح تحمل شذى حياة جديدة قوية فرددتها بلطف قائلا « عودي بها مع مزيد الشكر لانني ما عنيت بك، شهد الله، طمعاً بمال، ولم آمل يوماً اجراً أو ثواباً. » فألحت علي واقسمت والعبرات تغرق عينيها «أقسمت عليك يا سيدي الا ما أخذتها ولك في الرسول أسوة حسنة فهل رفض هدية قدمت اليه ؟ »

فقبلتها مكرهاً واردت أن أعوض لهذه المرأة الطيبة عن خسارتها ، عرضت عليها الثمن فأبت وتألمت فما كان مني الا أن انزلتها فندقاً قريباً مني واوعزت إلى صاحبه باطعامها وتلبية طلباتها ثم جهزتها بما تحتاج اليه من علاجات وادوية مقوية .

وظلت السجادة ملقاة في عيادتي اسبوعاً وبعض أسبوع إلى أن كانت مناسبة تطلبت مني التفكير في هدية اقدمها لصديق عزيز ووقعت عيناي فجأة على السجادة مرمية في ركن من أركان العيادة فقلت لنفسي – انها ضالتك فهي خير ما يهدى لانها صنع يد تلهج بالثناء عليك .

ومضى يومان وجاءتني المريضة اياها وقد اشتد عودها وعادت اليها نضارتها فترقرقت في محياها ورداً في الخدود ، قالت لاهثة أرجوك يا دكتور ان ترد لي السجادة لانني وهبتها إلى هذا الرجل ، واشارت إلى رجل بجانبها، فلاح عملاق ذو لحية كثة استطاع أن

يتسلط عليها ويأخذ بلبها .

فوقعت في أزمة بل قل في دوامة يعسر الخلاص منها فالسجادة ذهبت إلى الصديق ولسان حالها يقول :

يجود علينا الخيرون بمالهم
ونحن بمال الخيرين نجود

ومن العار استردادها ..

ولم أشأ أن آسف أو أسف إلى سويتها الفكرية فاناقشها ويكون مثي بذلك كمثل المجنون الذي رآه الطبيب يضع اذنه على جدار المستشفى فلما سأله عما به ، قال لطبيبه : « تعال اسمع بالله عليك » ، فجاء الطبيب ووضع اذنه ثم رفعها وهو يقول « لا اسمع شيئاً » فضحك المجنون وقال : « وانا كذلك ! »

لقد صدقتها حينما وهبتني السجادة فصار لزاماً علي أن ادفع ثمن غلطتي فقلت « تعالي معي إلى بائع السجاد اشتر لك واحدة تختارينها بحجمها لا بل أكبر منها. » قالت : « لا أريدها هي نفسها .. » قلت « حسناً كم تقدرين ثمنها سأدفعه لك غير منقوص وسامحك الله بما صرفت وما انفقت ، وبما اشتريت وباجور الفندق واثمان الطعام .. » قالت : « لا .. اريد سجادتي نفسها . »

وكان أن تكرم صديق للطرفين ، فأنقذني بأن جلب السجادة فدفعتها اليها ورحت اردد مع القائل بعد أن تنفست الصعداء

باء بالخسران كل من تنكب اختصاصه .

ليس من انسان كالطبيب يعيش حياة مزدوجة الشخصية .
هكذا تبينت هذه الحقيقة ذات مساء ، وأنا أخلع مسوح الطبيب لآخذ طريقي إلى البيت . وكانت الساعة قد شارفت الثامنة ، ودقاتها الرتيبة تزيد من وطأة الصمت الذي ران على العيادة بعد خلوها من الزبائن ..
وقد شعرت ، بعد أن خلعت مسوحي الابيض انني أخلف ورائي تزمتاً وبروداً لا يخلوان من جفاء وقلباً لا يكاد يستوعب من الاتراح والافراح سوى أصداء مبهمة يمتصها الاستمرار والرتابة ..
ولم أكد أتهيأ لترك العيادة حتى شعرت باقدام تقترب من الباب لهيفة عجلة ، وما لبثت أن أطلت فتاة في ربيع صباها ثم تلاها شاب في مثل سنها . وكان معقود الجبين على نظرة باردة لا تخلو من أسى ..
كانت الفتاة قد استرخت في أول مقعد صادفته وعقدت ساقاً فوق أخرى باستسلام غريب ، بينما وقف الشاب ازائي ظاهر الاضطراب كمن فرغ صبره .
غير اني تجاهلت هذه الظاهرة الغريبة ، فالطبيب يرى في كل ساعة ألواناً من ضعف البشر وشذوذهم لا تلبث أن تصبح بالاستمرار أمراً عادياً لا يدعو إلى الدهشة ..
ولم ألبث أن أخذت أنقل بصري بين الشابين على التوالي ، مستفسراً عن المريض بينهما ، وفطن الشاب إلى نظرتي فقال مرتبكاً
— المسألة يا سيدي .. كلمة ورد غطاها هل أنا مخطىء بشعوري ؟
فلما لمح في وجهي علائم الدهشة استطرد موضحاً :

– نعم يا دكتور .. ثمة شعور أقرب إلى شعور العجائز ، يلهمنا أحياناً أن نولي ثقتنا أناساً دون آخرين ..

قلت :

– ربما .. قد يصدق هذا الحدس في علاقاتنا مع الناس ، أما مع الاطباء فالمسألة تختلف ، اذ تتوقف الثقة بهم على مبلغ ما لديهم من علم وتجربة لست أدعيهما ..

وخيل إلي خلال هذا الحديث ان الفتاة تسبح بخواطرها في جو آخر ، اذ لم تشترك معنا بكلمة ، ولكنني تبينت خطأي في هذا الظن حين بادرت قائلة :

– صحيح ان الثقة بالاطباء تتوقف على ما لديهم من علم وتجربة .. ولكن ثقتنا شيء آخر .

ثم استطردت هامسة :

– ان مرضنا يحتاج إلى انسان أكثر مما يحتاج إلى طبيب ..

ولم تلبث شفتاها ان انفرجتا عن ابتسامة واهنة حين قال الرجل

– أعتقد انني انا المريض يا دكتور ..

فقلت بايجاز ، دون أن أحاول فك هذه المعميات . سنرى .

وسريعاً ما بادرت إلى سماعتي التقليدية التي نسميها مسبحة الطبيب وامسكت بها متهيئاً للفحص ، ولكن الشاب بادرني قائلا

– ان مرضي لن تكشفه بي يا دكتور ..

فندت عن المرأة الصغيرة صرخة خافتة كتمتها بجماع كفيها ، فقال الشاب وهو ينظر اليها نظرة باردة :

– قد ابدو قاسياً بالغ الغلظة يا عزيزتي ، ولكنني انسان وزوج ومحب .. أريد أن أعيش خالياً من عذاب الشك ولو عشت في عذاب اليقين ثم التفت إلي قائلا

– دكتور ، بصراحة .. نحن زوجان منذ ثلاثة أيام ، ربطنا الحب ، ولكنني شعرت منذ الليلة الأولى أن فراشنا تقاسمه ثلاثة أنا وهي وشبح مجهول ..

ولم تلبث المرأة الصغيرة أن استدارت نحو الجدار تداري وجهها الباكي حين همس زوجها بصوت بارد عميق .

— لقد خيل إليّ يا دكتور انني لم أتزوج عذراء ...

ولعلي فطنت إلى سر الزائرين الغريبين منذ أن قال الشاب « أعتقد انني أنا المريض يا دكتور » وقدرت الحقيقة سلفاً بحدس الطبيب الذي يتلمس الحقائق وينجح أحياناً في الكشف عنها رغم تواريها في تضاعيف الظلمات .

وكانت كلمة الزوجة « ان مرضنا يحتاج إلى انسان أكثر مما يحتاج إلى طبيب » قد تركت اثراً عميقاً في نفسي ، وظل دويها الهائل يطن في اذني مثل الهدير الابدي يصدر عن عالم مجهول ، ولقد أشعرني بالحيرة انني أصبحت في تلك اللحظة معقد الرجاء عند مخلوقين صغيرين تتوقف مصائر أيامهما ، سعادة أو شقاء ، على كلمة صغيرة تخرج من شفتي ..

ولقد لاحظت ، رغم بوادر الجفاء بين الشابين أن كلا منهما مولع بالآخر ، ولا غرابة ، فقد كان كلاهما في فورة الصبا ، يتمثل بهما جمال الزهرة واطارها الاخضر وكنت أثناء شرودي ، أقدم على غير وعي مني بتهيئة الكرسي النسائي ذلك الذي حمل خليطاً من النساء ما كنت لانظر اليهن جميعاً وهن عليه الا نظرة الطبيب الذي يتوخى البرء من خلال العلة ، ولا يسأل عن المعلول الا كما تسأل الشجرة المثمرة عمن يتلذذ بثمرها ، لا فرق لديها أكان قاطفها ناسكاً صالحاً أم مجرماً قاتلا ، فالجميع لديها سواء ..

ذلك هو شعور الطبيب حين يرتدي مسوحه الابيض ، فهو يطرح من الاسئلة ما يعينه على كشف غوامض الداء ، أما الانسان ، فانه في رأيه هو الانسان ، ولا شيء عدا ذلك مما تعارفت على تقسيمه المجتمعات إلى درجات وطبقات .

وكانت الزائرة الشابة قد تركت مقعدها واخذت تجرر قدميها نحو كرسي المعاينة كشاة تتبع جزارها ، وخيل إلي انني لا أقل قسوة

عن ذلك الشبح المجهول فذلك قد هدم نفسها ، وانا ... من يدري ، فلربما كنت المعول الذي سيهدم بيتها .. هنا مرق في ذهني ، كشريط خاطف ، ما سبق أن تعرفت اليه من أيام الخطوبة عند المحبين ليالي السمر ، والاصابع منعقدة في مودة تتبادل ضغطات الشوق في ظلام السينما أو في المنعطفات ، قبل افتراق الصنوين ، كل إلى منزله الابوي ، وشعرت بحنان لا حد له حين تصورت ما كان عليه الزائران من سعادة قبل ليلتهما الأولى التي امتد ظلامها وطال عليها الفجر ، ما ذنبها ان كان في حياتها سر تركته نزوة المجهول ؟

ولكن ما ذنب الرجل ليحمل وطأة هذا السر الهائل ، مبدداً شبابه في الشكوك والعذاب ؟ ثم .. أهو ذنب ، كوني درست في كلية الطب ، لاعيش حياتي محرجاً ، لا أكاد أرضي أحداً ، حتى ولا نفسي ؟ ولكن ..

علام اقحم نفسي شخصاً ثالثاً في مشكلة كائنين ؟

ان مهمتي تنحصر في الامساك بآلة ما ، والنظر في جوف قطعة من لحم ، واستعادة ما قرأته وخبرته في مثل هذه الاحوال وبعدها أقول كلمة العلم والتجربة بصوت بارد كالفولاذ ، وانا انظر إلى قائمة التعرفة ــ الاستشارة في العيادة « كذا » ليرات .

غير أني في تلك اللحظة ، بادرت إلى التشاغل بالمعاينة عما عداها ، متعمداً الاستغراق فيها لدرجة تلهيني عن كل خاطر ، ولقد تبينت بعد الفحص ان الزائرة الصغيرة كانت مذنبة ، وكانت شكوك زوجها في محلها ، ولا مجال لنكران جرم واضح المعالم رغم تقادم العهد عليه ، بل لعل تقادم عهده ، هو نفسه من ابرز الدلائل على وجوده ..

ولم البث أن رفعت إلى الزوج الواقف بالانتظار ، وجهاً مبلولا بالعرق ، وكنت حائر النظرة لا اجرؤ على التحديد في شيء ، ومع ذلك فقد انطلقت من شفتي كلمة واحدة ، كانت قصيرة ولكن فيها الكفاية ، وانطلق الزوجان على أثرها بخطوات عجلة لا يلويان على

شيء ، ولم تلبث خطواتهما أن تخافت وقعها شيئاً فشيئاً حتى طوتها ضجة الشارع ..

وكنت قد القيت نفسي على اول كرسي صادفته ، واشعلت سيجارة ، وأخذت خواطري ترسم مع دخانها طيوفاً وخواطر حائرة بين الوضوح والغموض . وكانت تدور كلها حول سؤال واحد .

— هل جانبت الصواب أم أخطأت فيما قلت ؟

الاحد .

دخل الزوج ثم تبعته الزوجة تمشي على استحياء قال « ان زوجتي مريضة تشعر بآلام تنتابها وتتمركز في بطنها بين وقت وآخر وقد ذاع صيتك بين الناس ، واقسم لي اخي انك انقذت له امرأته التي أعيت الطب واجهدت الاطباء . »

فالتفت اليها اسألها متى تشعر بالالم .. قبل الطعام ام بعده .. فأسدلت اجفانها ولم تحر جواباً ، فلما أعدت السؤال همست في اذن زوجها الذي أجاب عنها بان الالم ينتابها يوماً قبل الطعام وآخر بعده .. فسألتها هل لاحظت علاقة الالم بزمن بدء الدورة الشهرية (العادة) فأجابت موجهة الكلام الى زوجها ، وكأنه هو السائل — بصوت خافت ولكنه طرق سمعي — انها تتألم في مستهل كل دورة ، فأعاد الزوج الجواب بصوته الجهوري .

وكنت طيلة هذه المدة أضع يدي على فمي أغالب ضحكة تكاد تفلت من بين شفتي .. ولكن الامر لم يكن يحتمل المزاح على ما يظهر لانني كدت أسأل عن المدة التي قضاها الزوجان معا كزوجين ، وعن المانع الذي يتخذانه للحيلولة دون الذرية .. حتى احمر وجه صاحبي واجاب بامتعاض ظاهر .

— يا اخي كلمة ورد غطاها .. الست مريضة ببطنها ، أكتب لنا « راشيته » تسكن الوجع وبس ..

— طيب ، يا ابن الحلال ، انني اريد ان أجمع المعلومات

واربط الاعراض لاكتشف منشأ العلة .. ألم تزر طبيباً قبل اليوم ؟
— لا والله .. ولولا ما سمعناه عنك . هذا عرض يا أخي والعرض غال ..

فاختصرت الاسئلة وأومأت الى الممرضة كي تهيئها للفحص فحملت الممرضة الملاءة البيضاء وطلبت الى « السيدة المصونة والدرة المكنونة » نزع المعطف فاذا بصاحبنا يقف ويقول . لا .. لا .. هذا كثير لماذا تريدون نزع البستها ؟

— كي افحصها . ألم يفحصك طبيب في الماضي القريب او البعيد ؟
— كنت ازور طبيب مستوصف الحكومة فاشكو له صداعاً ليعطيني حبوباً وأشكو له ألماً في البطن فيجس نبضي ويعطيني شراباً .. فاذا بك هنا تعري الناس وتستنطقهم . والحمد لله .. انك لم تسألنا كيف ننام ، وكيف ندخل الحمام ! ..

استنوق الجمل

وفد على عيادتي اليوم شاب في العشرين من عمره ، وقد بان التردد على محياه ، وظهر الارتباك في مشيته ، ووضع قدمه غير الثابتة على عتبة العيادة . ولما استقر به المقام وتطلعت اليه أتساءل عن شكاته ، تصبب العرق من وجهه ، وأطرق قليلا ثم قال « انني تعس ، وارى الحياة مظلمة ، لا طعم لها .. وانك معقد الرجاء ، فاذا لم يكن أمل في الشفاء ، فانني سأودع الدنيا الى غير رجعة غير آسف ولا نادم .. »

قلت : «هون عليك.. فما انزل الله داء الا أنزل له دواء.. وقد تقدم الطب في السنوات الاخيرة حتى بات أعتى الامراض بل اشدها فتكاً تحت رحمته . »

قال : « الا ترى وجهي ؟ » قلت : « بلى . » قال : « الا ترى ما به ؟ » فنقلت بصري في قسمات وجهه فلم أجد بها ما يشين ..

قال : « انه الشعر الكث الذي يصل ما بين حاجبي.. انني اقضي الساعات الطوال في رفع الشعرات ونتفها واحاول اخفاءها جاهداً

ولكن آثارها ستبقى أبداً تدل على وجودها   لذلك تجدني أتهرب من المجتمع ولا سيما فتيات الجامعة كي لا يبصرن عيبي ولا اترك لهن فرصة التحديق في وجهي . »

فضحكت في سري ، رغم تظاهري بالجد والاهتمام .. لقد مرت بي حوادث كثيرة متشابهة وتذكرت شاباً آخر من قطر شقيق في مثل سن هذا الطالب غدت الدنيا في نظره حالكة السواد ، لا تستحق الاستمتاع بها والعيش في كنفها لقد كان يشكو فقدان الشعر من ابطيه ، وهو يخجل ان يكتشفوا فيه هذا النقص ، لذلك فهو محروم من رياضة السباحة .

وآخر من حلب كاد يقدم على الانتحار لولا انه يخاف الله ويخشى عقابه ، لماذا .. ؟ لانه خلق بقدم لا تحمل الا ثلاث اصابع فقط وهو يخشى أن يقوم برحلة مع رفاقه فيضطر الى نزع حذائه فيكتشف أمره ، وكذلك فهو لا يتوضأ في الجامع ولا يصلي فيه ، لانه يخاف افتضاح أمره وظهور عيبه. وامثاله الذين يستشيرونني بالمراسلة كثيرون.. لقد انصرفوا عن التفكير فيما يعود على عائلاتهم ووطنهم بالنفع والخير ، الى التفكير في جمالهم شأن النساء .. ولكن مع الفارق .. فالنساء عرفن عن طريق التجربة والارث او بالغريزة بعض مقاييس الجمال التي تستهوي الرجال . أما الشباب فقد ضلوا طريق الرجولة .

فمتى كانت كثافة الشعر بين الحاجبين او زواله من حفرة الابطين سبة وعارا ؟

ونصيحتي الى هؤلاء الباحثين عن الجمال المتشبهين بالنساء ان يقرأوا قول عمرو بن معد يكرب في الجمال الحقيقي .

ليس الجمال بمئزر   فاعلم وان رديت برداً
ان الجمال معادن   ومناقب اورثن مجداً

السترْ ! السترْ !

قال صاحبي   « ما لي اراك قد عدلت عن تسجيل أسماء مرضاك

ببطاقات كنت تعود اليها كلما عادوا الى استشارتك ؟ »

قلت : «انك تعلم ان تسجيل بطاقة لكل مريض يتطلب وقتاً ودقة في العمل وقد حاولت مراراً ان اسير على هدى طبي قويم . فكان بعض أفراد المجتمع اقوى من ارادتي ، وكلما مشيت في هذا الطريق شهراً او بعض الشهر جاءتني حادثة صدمتني وأعادتني فوضوياً . من ذلك :

اني سألت سيدة عن اسمها فتلكأت ثم لفظت اسماً بتردد .. ، ولا شك انه اسم مزيف.. ولما سألتها عن والديها وعما اصابهما من أمراض في غابر الايام التفت الي عمها الذي كان يرافقها قائلا .

ـ اتذكر يا دكتور ايام سفر برلك (الحرب العظمى) لقد كنا مجبرين على حمل الهويات وكنا نتعمد تلطيخ اسم الوالدة ببقعة حبر تطمس معالم الاحرف او كنا نقوم بحكها بالموسى كيلا يقرأ اسم الوالدة لان ذلك عيب .. والان تريد منا ان نسلسل لك اسماء العائلة أباً عن جد ، وان نذكر لك ما اصاب افرادها من خير وشر ، كأننا في حضرة مستنطق لا في حضرة طبيب ؟ ان ابنة اخي تشعر بالصداع وبالام في الكبد ، فأعطنا علاجاً يخفف المها وقاك الله شر كل الم !

وجاءني آخر بابنته الطالبة في الجامعة قائلا « استبد بها الارق ، واستحوذت عليها فكرة الاضطهاد .. فهي تظن انها مضطهدة من ذويها ومن معلميها ومن خالقها الذي خلقها فلم يحسن خلقها فجعلها ناقصة من دون الناس أجمعين . »

ولما حاولت الاستفسار عن عدد اخوتها وعن صحة أعمامها لاستشف من وراء عامل الارث ومؤثرات البيئة أجابني والدها : « ما لنا ولاخوتها يا دكتور انني جئت لمعالجتها لا لمعالجة افراد العائلة » فتظاهرت بالانصياع ورحت ادون في البطاقة سيرة المرض وتطوره باللغة الاجنبية ، فاذا به ينحني فوقي ويتطاول برأسه ويشرئب به ، ثم يمد يده معتذراً ليتناول البطاقة ويرجوني اتلافها .. قائلا : « .. لا .. انها مخطوبة ، ولي بك ملء الثقة .. انك أخي بعهد الله ولن تذكر مرضها لمخلوق .. ولا أحب ان يبقى لديك دليل « مادي » يشين ابنتي ويلصق بها عاهة

نفسية نحاول اخفاءها جاهدين . »

وهناك اكثر من حادثة تتكرر في كل يوم مما جعلني ازهد في تسجيل الاسماء وتدوين الامراض .. بالاضافة الى محاولة اكثر مستشيري التخلص من الاجور .. فانهم يأبون ان يجلسوا مجلس المرضى .. ولكنهم يظلون واقفين يلقون الشكاة ليتلقوا الوصفة (على الماشي) لانهم اذا جلسوا واجابوا عن الاسئلة اضطروا الى اجراء الفحص وتأدية الاجور وهم عن هذا راغبون .

عندما يشعر الطبيب بالعجز ...

اذا كان الطب ، على اعتباره جماع عدة علوم يضاف اليها الذكاء والفطنة ، قد أحرز تقدماً هائلا في السنين الاخيرة ، فمما يحز في قلب الطبيب أنه لا يزال عاجزاً مكتوف اليدين أمام بعض الحالات التي تظهر في البداية على قدر من البساطة والسهولة ومع ذلك فعلى حلها تتوقف سعادة قلب وهناء أسرة ومستقبل انسان. مثلا ، بين يدي الآن ، رسالة مؤثرة من فتاة تعرض علي مشكلتها : انها حسناء ، ومهذبة ظفرت بنصيب وافر من الثقافة ، تزوجت منذ أيام معدودات شاباً أحبته واحبها وان وضعهما المادي حسن وحياتهما موفورة ميسورة .. مع ذلك فالجو يكفهر ، والسعادة التي لاحت لهما تضطرب على كف عفريت ، لان الزوج اكتشف فجأة أن امرأته الصبية شعراء جداً ، يعني أن الشعر لا ينمو على ساقيها وساعديها وحدها ولكنه يغزو أماكن اخرى لا يرى الشعر فيها الا عند الرجال .. كالصدر والظهر والسيلة « الشفة العليا » .. ولفت نظري أن الرسالة مكتوبة بخط « رجالي » واغلب الظن أن الزوج هو الذي كتبها وان هذا الزوج يعيش في مأساة لا تقل حدة عن مأساة عروسه . فهو يتأرجح بين العطف عليها وقد أقول حبها ، وبين النفور منها لانه يفتتح الرسالة على هذا الشكل . انني فتاة أقدمت على الزواج .. « لم يقل تزوجت » . ويقول . « اكتشف زوجي عيبي الوحيد » يعني انه يعتقد أن زوجته خدعته اذ كتمت عنه عيبها ، ولكن حبه لها يظهر بهتافه اليائس : «أناشدك الله والوجدان أن تجيب استغاثتي وتهب لنجدتي يا ذا القلب الرحيم.. الخ » ثم يطالب الاجابة الى عنوانه هو.. عنوان الزوج نفسه.

هنا تبدأ حيرة الطبيب . ان ازالة الشعر عن جسد المرأة يكون بعدة طرق .. فاما أن يزال بالطرائق البلدية المعروفة وهي طرائق تزيد الطين بلة ، وتجعل من الزغب الخفيف شعراً قاسياً واخزاً ، واما أن نلجأ الى التجميل . أن نشقر الشعر بحرقة بماء الاوكسجين . وهذا خداع يكلف جهداً ووقتاً ومثابرة ولا يحل المشكلة حلا جذرياً . وأخيراً يأتي الحل الجذري العلمي المنطلق من مبدأ العلاج الهرموني ، وهو أمر لا يزال محفوفاً بالصعوبات والمجاهيل ، ولا نستطيع اللجوء اليه الا بعد دراسات عميقة وتحاليل دقيقة . لان الغدد والهرمونات لم يكشف النقاب عنها كشفاً دقيقاً يجعلنا نطمئن الى النتائج . فما العمل وانت امام سعادة مهددة ، وعروسين معذبين ومستقبل قاتم ؟ .. هنا يجب أن تتدخل علوم أخرى ، يجب ان نقلل من نفرة الرجل اذ يرى منظر الشعر في امرأته . لان الشعر لا يضير انوثتها وصفاتها الامومية الاخرى ، ولا يؤثر في دورها امرأة وصبية وأماً .. بل لعله امارة على انوثتها الناضجة الفائرة .. وقد تكون هذه الصفة .. هذه الحسنة .. كافية لتمسح من ذهن الزوج سيئات امرأته الجمالية الاخرى .. ولكن كم يحتاج هذا الاقناع ، وهذا الاثناء للفكر كله من جهود ووقت قد يكون آخر الامر مضيعاً ؟

هذا العجز – واعترف – يصيب الطبيب بغير قليل من الاسى وفي أعماق وجدانه يطل سؤال مخزون : « هل استطيع أن أكون نافعاً ؟ » لا ريب أن الجواب الى حد ما يكون ايجابياً .. يعني انني استطيع أن أقدم عوناً ولو قليلا ، ولكن ماذا أصنع اذا كان نفور الرجل اقوى من حيلتي ومن ايحائي ومن تلاعبي بالالفاظ ؟

بين العلم ومساومة

قلت في نفسي . « اقطع همومك تنحل . » فقد كان الامام الشافعي ، رضي الله عنه ، يقول ما معناه . لو كلفت بصلا ، ما تعلمت مثلا . والطبيب – على الرغم من أنه يقدم جهداً – يجب أن يؤخر عليه مثله مثل بقية العمال اليدويين والمفكرين – الا أنه ليس تاجراً أو صاحب

دكان أعني انه لا يستطيع أن يهتم بالبحث عن معاشه والبحث عن العلل والامراض ويكون ناجحاً في كليهما . ان الزبون (ولنأخذ الكلمة على اطلاقها حتى تشمل المشتري الآتي الى دكان والمريض الوافد على عيادة) في جل البلدان الغربية يفترض أن المحل الذي يود أن يشتري منه سلعة، وان الطبيب الذي يقصده للمعالجة والاستشارة ، لا يغشانه ويطلبان سعراً محدوداً ومعقولا منذ البداية . ولذلك لا ترى في هذه البلدان من يضيع وقته ووقت غيره بالمساومة . وأما عندنا فالمساومة جرت مجرى الدماء في العروق ، والامثال الشعبية آية على ذلك : «الغشيم يدفع نصف المطلوب» ، « الغلب شطارة » .. الخ .. والزبون الذي يقصد عيادة الطبيب هو نفسه الشاري المساوم الذي لا يكل ولا يمل .. الذي نراه في الاسواق . فكيف نوفق بين ما يحتاجه الطبيب بين الاهتمام بالعلم والفن وبين المساومة ؟

خطرت لي فكرة . « الاجرة عندنا محدودة فلماذا لا أكلف الممرضة قبض الاجرة سلفاً وانصرف أنا لدراسة أحوال المرضى متتبعاً بذلك سنة بعض الزملاء ؟ .. » ونفذت فكرتي اعتباراً من الساعة التاسعة ومن صباح احد الايام . ودخل أول زبون ، كان مصاباً بقصور كبدي ، شخصت ذلك سريرياً ولم احتج الى تحليل دم وتكليف المريض مصاريف اخرى هو في غنى عنها ، ونصحت له دواء من الادوية الناجعة التي وهبنا اياها العلم . ونهض الرجل شاكراً وهو يهمس في أذني . « جزاك الله خيراً . عرضت نفسي على اثنين ولكنني لم افز بنتيجة ، ودخلت المستشفى واجريت التحاليل فجاء تشخيصك مطابقاً لتشخيصهم .. »

وأضاف وهو يأخذ الوصفة : « ولكنني أؤكد لك انني لا أملك الا الليرات العشر التي استلفتها مني ممرضتك .. وأنا بحاجة الآن الى ثمن الدواء » وكانت الممرضة واقفة قرب الباب ، فقلت لها : « اعيدي له ليراته العشر » ، وخرج — طبعاً — شاكراً . وأما الممرضة فكانت متجهمة الوجه .. فلما أغلقت من دونه الباب قالت : « من العبث بعد اليوم المثابرة في خطتنا الجديدة لنعد الى طريقتنا القديمة . »

قلت « ولكنني لا أريد أن اضيع وقتي وعقلي في المساومة ». لم يكن

من عادتها مناقشتي ومع ذلك أردفت قائلة :

– «ومتى كنت تساوم، أردت أن أقول لنعد الى طريقتنا القديمة . من أعطانا نأخذ منه ومن لا يمد يده الى جيبه نمد يدنا نحن فنعطيه والرزق على الله الكريم . »

المريض الشاعر

كتب الي قارئ فكه يطلب الي رأيي في بضعة أوجاع تنتابه ولكن ما حملني على الظن بأنه في غير حاجة الى مساعدة هو أنه في نهاية الاستشارة يعرب عن استهانته بالمرض وأمله في الشفاء ولذلك آثرت أن اسوق استشارته كما وردتني وهي – وهذا اطرف ما فيها – مكتوبة شعراً .

ما قولكم يا سيدي الطبيبا
بعاشق قد فقد الحبيبا
أما دواء يوقف الوجيبا
وبلسم يمرهم الكروبا
ان الندوب لم تعد ندوبا
لكنها الجرح غدا شخوبا
سأقطع الشعاب والدروبا
وأسأل البعيد والقريبا
عنك واني واجد مجيبا
يكشف عن حشاشتي القطوبا
فالداء قد لا يعجز الاريبا
والحزن لا يحير الطروبا
والفجر كم ذا يعقب الغروبا

وقد يتساءل القارئ هل يحتاج صاحبنا الطريف الى تخطيط قلب أو الى تخطيط رأس ؟

الصبر ! الصبر !

كانت الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم الخميس الماضي ، لما جاءت الخادمة تخبرني أن صوتاً نسائياً يهتف بي طالباً الاتصال بي في الحاح ، على الرغم من افهام صاحبة الصوت أن الطبيب متمدد يستريح . وأخذت السماعة فقال الصوت :

ــ دكتور .

ــ نعم ، أمر ..

ــ لماذا أنت بالدار ؟

ــ وأين يجب أن أكون ؟

ــ جئناك الآن الى العيادة واذا هي مغلقة .

ــ هل قرأت اللوحة على الباب « الدوام من التاسعة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر » ؟ ان الشطر الآخر من النهار مخصص للاستجمام والراحة واعداد المجلة .. وأما اذا كانت المسألة مسألة اسعاف فأنا على استعداد ..

ــ لا .. ليست المسألة اسعافاً .. ولكنني في حاجة اليك .. أريد ان أسرد عليك قصتي وآخذ رأيك في أمري .. ولا أستطيع المجيء في أوقات دوامك في العيادة ، فأرجو أن تأتي الآن وتمنحني من وقتك ساعة .

ــ اذا كنت غير مستعجلة فتعالي غداً ، الجمعة ، في الساعة التي تناسبك ..

ــ هل توافقك التاسعة صباحاً ؟

ــ اتفقنا ...

ولم تحضر يوم الجمعة ، وعادت تخابرني في الرابعة من بعد ظهر السبت ، مستنكرة أن أكون في مثل هذه الساعة في بيتي .. فقد جاءت الى العيادة منذ قليل ولم تجدني .

فلما استوضحتها عن سبب نكولها عن موعد التاسعة من نهار الجمعة، قالت في لهجة لا تخلو من الدلع والتأنيب معاً :

ــ لم أكن قادرة على المجيء .. وقد وفد الى الدار حشد من الزوار ، وكان عليك أن تدرك ذلك .. أنا فتاة محكومة من أهلي ، فلماذا لم تنتظرني اليوم الساعة الرابعة ؟

ماذا أفعل ؟ عددت حتى العشرة لكي احتفظ بهدوء أعصابي وقلت :

ــ عفواً يا آنستي ، فأنا ليس لي ذكاؤك وقدرتك على هتك ستر الغيب فأعلم أن زواراً .. حشداً من الزوار هاجمك في البيت ، وانك فتاة محكومة ، وان موعدنا تأجل من صباح الجمعة الى عصر السبت ..

ــ الآن دعنا من الماضي .. تعال الآن ...

ــ السمع والطاعة .

من يدري ... قد تكون فتاة مضطربة فقدت توازنها ، واقعة في مشكلة ، وقد أكون أنا نافعاً لها بعض النفع ولبست ثيابي وتوجهت الى العيادة .. ورأيتني أمام فتاتين متقاربتين عمراً ، في حوالي العشرين . وفتحت وأدخلتهما ، ولبست ثوبي الابيض وجلست خلف المكتب انظر اليهما لارى ايهما صاحبة المشكلة .. واذا كل منهما تدعو الاخرى أن تبدأ الكلام ..

ــ احكي سعاد .

ــ لا قولي أنت .

ــ لا .. أنت صاحبة المشكلة .

ــ لا يا أختي .. يا كحلا من فمك أحلا .

وقلت في نفسي . « متى تنفرج الغمة .. غمة هذا المسكين القابع وراء مكتبه .. آه لو كان من حق الطبيب أن يرقع بعض زبائنه فلقاً .. اذن لنقصت الامراض » ..

وقلت لسعاد :

ـ هيا يا سعاد .. اسردي القصة فانا على عجل . وعندي موعد .

وراحت بعد تمنع وتدلل طويلين تروي قصة تبدأ منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها .. وانقضت نصف ساعة تذكرت خلالها نكتة الخوري الذي رافق مكارياً لبنانياً مشهوراً بالكفر ، فألزمه أن يضع حصاة في فمه ... الى آخر النادرة ...

وخيل الي انها انتهت فقلت :

ـ منذ ثماني سنوات وأنت واقعة في هذه المشكلة ساكتة صابرة .. والآن أصبحت على عجل ولم تجدي طوال هذه المدة وقتاً انسب من وقت خلودي الى الراحة . سامحك الله.. تفضلي أفحصك ..

فوقفت على غير عجل واخذت تلعب بأصابعها مظهرة الخجل، قلت :

ـ مالك ؟ دعي الخجل .

ـ لست خجلى ، ولكني لم آت من أجل الفحص .. جئتك لافضي لك بمشكلتي وأرى رأيك في حلها .. والفحص يتطلب أجرة .. ولم أحضر معي مالا .

ولم أقذف الحصاة من فمي على الرغم من أني أوشكت أن أفعل ، غلبتني النكتة كالعادة ، فكتبت لها اسماً وعنواناً من اختراعي ..

قالت : ما هذا ؟

ـ هذا اسم شيخ من أهل الكرامات تذهبين اليه وتطلبين اليه حجاباً.. أنا لم أكن في عمري اخصائياً في تلقي اعترافات الناس .

أصلحك الله وهداك سواء السبيل وأمدني بصبر منه عظيم .

أذهلتني مدينة برلين الغربية . هناك تقطع المدينة بسيارتك فلا ترى الا شوارع واسعة تمتد عشرات الكيلومترات . واشد ما يبهرك في هذه الشوارع ، لا سعتها ونظافتها وحسب ، بل نظام الانوار التي تنظم حركة المرور ، أنوار قد نفذها مهندسون نابغون ، واهتموا لاخراجها على نحو محير . تصور أن سائق السيارة الذي يسير بالسرعة القانونية التي تتراوح بين ٤٥–٥٠ كيلومتراً في الساعة ويجب الا تزيد ، لا يتوقف ابداً . تظل الانوار الخضراء مفتوحة أمامه في مفارق الطرق تدعوه الى اجتياز المفرق – على الرحب والسعة . واما اذا أسرع أو أبطأ فهو مضطر الى التوقف بين دقيقة وأخرى اذ يقع النور الاحمر منذراً أياه بان المرور ممنوع .

لقد أجرى هؤلاء المهندسون حساباتهم بحيث يقطع السائق الذي يسير بسرعة ٤٥–٥٠ كيلومتراً في الساعة المسافة الفاصلة بين مفرقي طريق قبل أن يسقط النور الأحمر .

أضف الى ذلك أن الشوارع قد جهزت بسيارات عادية تقف أحياناً على عدوة الشارع وتحوي جهازاً الكترونياً يعمل تلقائياً فاذا مرت في الشارع سيارة تتجاوز سرعتها ٥٠ كيلومتراً صورها الجهاز وسجل سرعتها. وفي اليوم التالي يتلقى صاحب هذه السيارة المخالفة مذكرة تشرح له مخالفته وتخطره بالمبلغ الذي يجب عليه دفعه (ويعادل خمس ليرات سورية) وهو يتضاعف كل خمسة أيام تأخر .

وقد استطاعت بلدية برلين ان تغل ما يقارب المليونين ونصف المليون

من الماركات في العام الماضي من المخالفات التي سجلتها الاجهزة الالكترونية من غير حاجتها الى شرطي يتورم فوأده في جدال لا ينتهي مع المخالف ، أو شرطي آخر يتبع هواه في ضبط المخالفة ، أو سائق يخانق الشرطة ويتضارب واياهم ، أو دراجات تسير في عكس اتجاه السير في شارع وحيد الاتجاه .. أو مخالفين يتهربون من دفع الغرامات شهراً وراء شهر حتى يصدر عفو عن المخالفات .. وما أكثر العفو . ولله في خلقه شؤون .

خاطرة اخرى من هناك .

كنت في أحد فنادق فرانكفورت الالمانية ، ويقع الفندق قرب المحطة الكبرى ، فخرجت استنشق الهواء على الشرفة . وجعلت أجيل نظري فيما حولي . لفت نظري هذه الحركة الدائبة اثناء الليل. القطارات ، كل ربع ساعة قطار ، تندفع منها ، اذ تتوقف ، حشود من البشر ، يخرجون من أبوابها العديدة وما ان يضعوا اقدامهم على رصيف المحطة حتى يغذوا السير لا يلوون على شيء ، في شتى الاتجاهات ، يضربون الارض باقدام عجلى ، لا يلتفت أحد الى أحد ولا يحدق أحد في أحد ، ولا يصب شاب نظرات لاهثة متشهية على فتاة خطرت قربه ولو تماست كتفاهما ...

وذكرت أن هذه الحركة الدائبة لم تنقطع منذ الصباح الباكر وفي اية ساعة من ساعات النهار .. وها هي ذي تستمر في الليل أيضاً . ان أيام الاسبوع هنا ، أيام العمل كلها جد وحيوية ونشاط وانتاج . المواطن يبني وطناً ويعمر دولة فهو في حاجة الى كل ثانية من ثواني عمره لهذه المهمة المقدسة حتى اذا كان يوم العطلة الاسبوعية خرج الناس شباناً وشيوخاً ، نساء ورجالا واطفالا يتيحون لانفسهم من أسباب اللهو والاستمتاع ما ينسيهم تعب الاسبوع المجدي كله .

في مثل هذه الاحوال لا يستطيع الانسان الا أن يقارن ، بتأثير محبته لوطنه ، بين ما يرى وما اعتاد أن يرى في بلاده . وهكذا رحت ، من حيث أدري ولا أدري افكر في موطني ، في الحاجات العديدة التي يتوق الى تلبيتها في شتى المجالات وكم تتطلب هذه الحاجات من عمل دائب

لا يلتفت فيه الجار الى جاره والشاب الى الفتاة حتى ينجز ونستشعر هذه الطمأنينة العميقة الآسرة التي نحسها حينما نرى الى عمل كلفنا جهداً ونصباً ، وقد تم .

من المتع التي كانت تستهويني في أوروبا المخابر العلمية . ان زيارتها لا تقل اهمية ومتعة عن زيارة الحدائق العامة والمتاحف ودور الاوبرا البديعة هندسة وبرامج . وما ان يزر المرء مخبراً او مخبرين حتى يتولد في ذهنه الميل الى المقارنة بين مخابر هذه الدولة وتلك .

زرت مخبراً علمياً كبيراً في برلين . يكاد يشبه معهداً للابحاث . في هذا المختبر تجري تجارب لا حصر لها على حيوانات التجربة ، وتدرس أثر الادوية والعقاقير عليها قبل تطبيقها على الانسان ودفعها الى الاسواق ادوية حسنة التعليب سهلة المأخذ ، متهاودة السعر قليلا أو كثيراً . والمختبر هذا مؤلف من عدة طوابق ، وفي كل طابق تجري أنواع خاصة من التجارب غير التي تجري في الطابق الآخر . فهذا مخصص لدراسة السرطان وتأثير الاشعة الذرية على الحيوانات والحجيرات السرطانية تمهيداً للقول الفصل في علاج هذا الداء الخبيث وهذا تقتصر الدراسات فيه على أكباد حيوانات التجربة ، وذاك حوى اقفاصاً تتسع الى حشد من الارانب يربو على ١٢ الفاً ، ومثل هذا العدد من الفئران البيضاء .. تتوالد كلها وتتكاثر غير آبهة لما ينتظرها من مصائر .. ولكن ما يبهر الناظر المتجول هي النظافة . انك تدخل اياً من الابهاء التي تغص بهذه المخلوقات الصغيرة فلا تنكر منظراً ولا تشمئز من رائحة . الهواء مكيف لا يفتأ يتجدد بواسطة أجهزة من أحدث ما ابتدعته الصناعة الكبرى . والماء يجري تحت الاقفاص على شكل مجار تجرف كل الفضلات . والتدفئة تجعل الحرارة ثابتة يستطيبها الانسان فكيف بالحيوان

وطاف بي عالم اخصائي في شؤون الذرة ، ومضى يريني غرفة العمليات ، حيث يجري التجارب على حيواناته ، ثم كلف نفراً من معاونيه اجراء بعضها أمامي وكنت لا اقضي العجب من دقة ما يجري ونظامه وصوفية اهله في عملهم وبحثهم عن الحقيقة ووسائل الدفاع عن الانسان

الذي خلقه الله في أحسن تقويم .

ودامت الجولة نحواً من ست ساعات فلما مضيت نحو باب الخروج منصرفاً وجدته موصداً واذا الاستاذ يدفعني نحو آلة الكترونية صغيرة ويسألني أن أضع يدي وقدمي عليها . فأمتثلت من غير ان أسأله تفسيراً . ونظر الى الآلة ملياً ، ثم ابتسم وقال : الآن استطيع ان ادعلئ تمضي وانا مطمئن .

فلما استزدته ايضاحاً قال لي : « لقد تحريت عن الاشعة في جسمك خشية أن يكون قد نفذ اليك منها شيء » ..

قلت : « وانت الذي تقضي اوقاتك أكثرها في هذا الجو الخطر . »
قال : « نعم ، وقد أكون ضحية. لا بد من الضحايا ، أنا هنا لا زوجة لي ولا أولاد أهب نفسي في سبيل سعادة الانسان . »

وفر ذهني وأنا اتشبث به بكلتا يدي الى بلادي وراح يطوف في العلماء الذين يهبون انفسهم لسعادة الانسان وعافيته وسلامته وفي علماء بلادي واساتذتها .ونشب بيني وبينه جدال أنا ادافع وهو يهاجم حتى كدت وانا في الشارع أتعرض لما لا تحمد عقباه من حوادث .. فلزمت الصمت الذي من ذهب وآثرت السلامة .

كاتب العرائض الذكي

أضحكني اليوم ذلك المريض الريفي اللطيف الذي راح يروي لي قصة مرضه بلهجته القروية المستحبة آلام تسافر في انحاء شتى من جسمه ذهاباً واياباً منذ خمس سنوات وقد نصحوه باستشارتي فلم ينتصح ، وقصد أحد المستشفيات الكبرى ولكنه خرج منه بخفيه وحدهما .. وأخيراً فليكن كاتب هذه السطور آخر الدواء ، — وآخر الدواء الكي — وعزم في نفسه قائلا . لنذهب وأمرنا إلى الله .

أعجبتني براءته وصراحته ، فقلت له أن يخلع ثيابه ويتمدد ، واذا هو يتردد بعض الشيء ، وينقل عينيه بين اللوحة المثبتة على الجدار « أجور المعاينة كذا » وبيني ويقول :

— قبل ما تعاين ، كم تريد مني ؟
— كذا ليرات ، هكذا كتب في اللوحة .
— ومن شأن ذقن أخيك (يعني ذقنه) .
— قدر ما تريد أنت ..
— قل فذلك أحسن
— أنت تساومني كأني بائع بالمفرق .
— المفاصلة حلال يا أخي .
— طيب ، كم تريد أن تدفع ؟
— قل أنت .

فضحكت من سياق الحوار وازدحمت في ذهني صور ضاحكة شتى . تذكرت أحد القراء ينبهني في آخر رسالة له . « وارجوك الا

تجعلني مادة ليومياتك » ؟

فازداد ضحكي وقلت لمريضي الطريف .

ـ اسمع . أنت على حق اذ تساوم ، أنا في الواقع عندي الاسعار مختلفة ، تتراوح بين الليرة الواحدة والمليون ليرة . كل معاينة لها سعر . وكل لحية لها مشط .

قال متعجباً

ـ كيف ؟ كيف ؟ ما فهمت عليك .

قلت .

ـ أكرر . عندي معاينة بليرة ومعاينة باثنتين ومعاينة بأكثر

ـ غريب أنا عمري حوالي الخمسين وما سمعت عن هذه القصة الا الآن .

قلت :

ـ اذن انت لم تسمع بقصة كاتب العرائض الذي جاءه بدوي يرجوه أن يكتب له مكتوباً لابنه المسافر في الكويت فسأله كاتب العرائض « كم تريد أن تدفع ؟ فأنا أكتب رسالة بليرة واخرى بنصف الليرة وثالثة بربع الليرة ؟ فأيهما تريد ؟ » فلما ابدى البدوي تعجبه وسأله زيادة في الايضاح قال الكاتب الماكر « اذا دفعت ليرة كتبت له رسالة يقرأها كل من يحسن القراءة والكتابة في الدنيا ولقاء نصف الليرة أكتب رسالة يجب أن توفدني معها أي اذهب بها أنا نفسي لاقرأها له ، لانه لن يستطيع فك رموزها »

فازداد عجب البدوي وتساءل . « ورسالة الربع ؟ »

قال الكاتب « أما هذه فتعاد اليك لتعود إلي لقراءتها لك فلا أفهم منها أنا نفسي ، حرفاً واحداً » . وأنا أيضاً أعاينك على طريقة كاتب العرائض ..

فهتف صاحبي مستنكر المفاصلة وأعرب عن رغبته في دفع التعرفة كاملة غير ناقصة . وظللت أضحك في سري ولكني لم ألبث أن تساءلت :

« أصحيح اننا « انني أنا شخصياً » أعاين وأعالج الناس على درجات واهيىء لكل ذقن مشطاً خاصاً ؟ اللهم كلا .. انني ما ان أنكب على فحص مريضي حتى تذوب المادة ويختفي كل شيء في المعرفة.. المعرفة الهادفة التي تتوخى خير المريض ولا أخال أن هذا مديح يجب أن أعتذر عنه ولكنه واقع أحمد الله عليه .. وان كان واجبي أن أعتذر كعربي .. فلاعتذر عن الشاعر القديم الذي قال .

ان المعلم والطبيب كليهمـــا
لا ينصحـان اذا همـا لم يكـرما

الصديق المدلل

لا أزال أذكر قصة الأمس . واليوم جاءني صديق قديم أمحضه من الود ما يطفح به قلبي ، وهو من بين أصدقائي كلهم ذو مكانة خاصة ولا أخاله الا ملماً بموقعه من قلبي ، لذلك أراه يتمسك بهذا الموقع ويرى أن ودي حقه وحكرته ـ وأنا راض بذلك منه ـ فيتدلل وتمتد يده بحركات عفوية إلى ادراج مكتبي فيأخذ ما يريد . وقد يقع لي أن أعده بهدية وأقول له ذلك واذا هو منذ هذه اللحظة ينقلب إلى مطالب بهديته أو إلى مهاجم ، لانه « لم يطق صبراً على اهمالي ونسياني »

جاءني اليوم عجلان .

ـ قم يا دكتور .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى مريضة .

ـ يا الله .

ـ عجل . أين سيارتك ؟

ـ تحت تصرفك .. طبعاً .

ـ أسرع

ـ عندي مريض .

– أجله إلى أجل مسمى أو غير مسمى .

وبقية القصة رواها صديقي لامه وأنا أعاينها

قال لها قولي له كل ما تشكين منه ، اذا كنت في حاجة إلى تحليل دم أو بول تعهد به لدى صديقه المحلل . لا تكتمي شيئاً ولا يكن لك فكر فقد قبضنا أجرته ، أفهمت يا أمي قبضنا أجرته .

وكنت أنا أضحك فقد قبض حقاً أجرتي ، مني أنا ، دفعتها له في الطريق مبلغاً اقترضه لا يرد . وأنا في هذا كله قرير العين بالصديق العذب الصعب .

الاربعاء

كان وزنه من العيار الثقيل ، من فئة المائة كيلو فما فوق ، يخب اذا مشى خباً ، ويتمايل ذات اليمين وذات الشمال كأنما يزحزح اوزاناً معلقة بجانبيه . دخل غرفة المعاينة ومن غير أن يوجه إلي كلمة شرع بنزع ثيابه قطعة قطعة .

قلت بهدوء :

— على رسلك ، فيم الاسراع ، انبئني بادىء الامر بما تشكو منه .

قال بلهجة الواثق .

— لاشيء ، انها نفخة في المعدة لا أكثر ولا أقل وانا واثق من صحة بقية الاعضاء وسلامتها فجسمي مثل الحديد

وانحنيت على الرجل ورحت اتحسس باصابعي مكان الكبد فوجدتها متضخمة ، وركزت السماعة على قلبه فبلغتني نفخات غير طبيعية في صوت ضربات القلب ، وبينا انا انظر في صدره وقعت عيناي على بثور وحبوب تغزو صدره ، وسألته مشيراً اليها :

ما هذه ؟

— لا أهمية لما ترى انها بثور لا تزال ترافقني منذ سنوات تغيب ثم تظهر وقد الفت حضورها وغيابها ، وهي لا تزعجني في شيء ابداً .

وعدت اسأله :

— الا تشعر بخفقان حينما تصعد السلالم ؟

ـ لا تهتم لذلك ، اني أشعر منذ مدة طويلة ببهر وبخفقان كلما جهدت جسمي ولكن هذا لا يهمني ، ولكن ما يقلقني هو اني ما أكاد ابتلع رغيفاً حتى تنتفخ معدتي واروح انجشأ ثم أشعر بجفاف محرق في فمي فلا تطفىء ظمأي الكأس ولا الكؤوس .

وشخصت المرض ان صاحبنا مصاب بالسكري . ورحت اتأكد من تشخيصي

ـ ألا تبول ليلا ؟

فأجابني محتداً :

ـ وعلام هذه الاسئلة كلها يا دكتور ؟ لقد جئتك اروم اصلاح معدتي فقط حتى استطيع أن آكل ما كنت قد اعتدته من الطعام اريد شراباً ، حبوباً ، زرقات .. ما تشاء ..

ـ اجبني على اسئلتي أرجوك، هل تبول ليلا ؟

ـ طبيعي ..

ـ يعني كم مرة .

ـ قلت لك بشكل طبيعي .

ـ أنا فاهم انه بشكل طبيعي ، ولكن قل لي كم مرة ؟

ـ أف ! انهض من فراشي ثلاث مرات أو اربعاً فاذا شربت الشاي مساء أو أكلت البطيخ كان علي أن اقوم خمساً أو ستاً .

ـ اهذا طبيعي يا صاحبي ؟

ـ طبعاً ... فمنذ عشر سنوات وأنا على هذه الحال وما أن أعود إلى سريري حتى أغط في نومي من جديد .

ـ سل من تشاء من اهلك واصحابك عن عدد المرات التي يقومون فيها تقتنع أن حالك غير طبيعية

وجعل يجادلني أنه طبيعي وان مزاجه غير مزاج الناس ، وانه لا يشكو شيئاً الا انتفاخ المعدة وان كل ما يرجوه هو العودة إلى الفتك في الطعام والشراب دون خوف من النفخة المعدية ..

وجعلت من جهتي اقنعه بأنه واهم وتسلحت بصبر ايوب لأبرهن

له أن عليه بالعكس – تقنين طعامه وشرابه حتى يتخلص من تضخم كبده ومن مرضه السكري الذي يعانيه – وكنت كناطح صخرة يوماً ليوهنها ثم واتتني الفكرة المقنعة فقلت له باسماً

– أقول لك بصراحة ، انك اذا اخذت بنصيحتي عادت قواك إلى سابق عهدها في زمن الشباب واصبحت قادراً على أن تتزوج مثنى وثلاث

هنا ضحك واستبشر واعلن عن قناعته وعن استعداده للانصياع لما آمره به ولو كلفه الامر صيام رجب وشعبان ورمضان ...

الكلمة السرية

الاثنين

المرضة في العيادة .. روحها ومحور نشاطها، فهي رسول المرضى إلى الطبيب ولسانه إلى مستشيريه، وكنت اعاني الامرين في انتخاب المرضة لانه يجب أن تجتمع فيها صفات ومزايا عديدة قد لا يكون بينها ناظم .. فهي تحتاج إلى الابتسامة الوديعة وتحتاج ايضاً إلى الصرامة .. وإلى اللين والحزم

كنت اليوم افحص احد المرضى فدخلت علي المرضة تقول ان في الباب رجلا لا يقبل انتظار دوره وأجدني مرغمة على اخبارك .. لانه يريد أن يسأل سؤالا واحداً و « رد غطاه » وهو ضيف ، من قطر شقيق وليس لديه وقت للانتظار .

خرجت اليه وادخلته غرفة ثانية ورحبت به فقال انه سمع بي فهزه الشوق للاستفادة من علمي فجاء يسألني ولا يستطيع الانتظار لقد ترامى إلى سمعه اكتشاف علاج جديد لتشمع الكبد وفاتته كتابة الاسم من خلف المذياع فكتبت له اسم العلاج ورجوت له الخير وتحركت اود الخروج والعودة إلى مريضي المنتظر .. واذا هو يسد الطريق.

– خيراً ؟ ؟

قال :

— ان امرأتي تشكو الاكزما منذ سنوات ، وتشعر بالحرقة والحموضة بعد الطعام وصداعاً واضطراباً في الطمث و
قلت مقاطعاً :
— اسمح لي ارجوك . أنا في عجل من أمري ، ومريضي مسجى على طاولة الفحص ، وهذه الاعراض التي تعددها تحتاج إلى فحص المريضة نفسها لاننا لا نستطيع أن نداوي على السماع
— ولكنني جئتك من مسافة ثلاثمئة كيلومتر لما اسمعه عنك من أنك لا ترد طلباً ولا تخيب سائلا .
ورن جرس الهاتف فرفعت السماعة والرجل لا يزال واقفاً وطرقت الممرضة الباب ودخلت تخبرني أن مريضي المسجى في غرفة العيادة الأخرى قد فرغ صبره .. ثم نظرت إلى السائل عاتبة فوضعت السماعة واندفعت إلى الباب اروم الهرب واذا الضيف يقف في وجهي قائلا انه يرجوني رجاء اخيراً :
— كيف السبيل إلى تحديد نسلي؟ لقد قرأت كتابك « اطفال تحت الطلب ومنع الحمل» فلم أفهمه جيداً ما هي ايام الخصب وايام الجدب عند زوجتي ؟
فتكلفت ابتسامة مصطنعة وقلت له حباً وكرامة .. أنا على استعداد لاروي ظمأك من المعرفة وسأعاينك مجاناً واعالج الاقربين من اهلك والابعدين على ان ترحمني وترحم هؤلاء المرضى المنتظرين وعندما سمع كلمة المجان تهلل وجهه فرحاً وقال
— حباً وكرامة ، أنا في اجازة ولا عمل عندي واستطيع انتظارك حتى تفرغ من جميع مرضاك .
واندمجت في عملي وأنا أضحك من غباوتي ، كيف فاتتني هذه الكلمة السحرية .. كلمة المجان .. لقد كان علي أن أنطق بها من أول دقيقة أراد بها تعطيلي .

المازق والمخرج!

الاحد

جلست في غرفة الانتظار على استحياء ، وقد علت حمرة الخجل وجهها البريء فأكسبها جمالا طهوراً لا تتوصل اليه ممثلات السينما رغم خبرتهن بأصول التجميل وقواعده .

كانت في ربيعها الثامن عشر وقد تأبطت كتباً توحي إلى رائيها انها طالبة مدرسة .. ثم شغلني العمل وانصرفت إلى فحص مرضاي .. حتى خرجت بعد ساعة من غرفتي لامر من الامور فلمحتها في غرفة الانتظار وقد بدلت كرسيها بكرسي آخر .

سألت الممرضة ، ما خطبها ؟ ولما لم تدخليها غرفة المعاينة ؟ قالت انها دخلت العيادة وجلى مضطربة .. وكلما جاء دورها اعتذرت عن الدخول ، وتركت غيرها من المرضى ثم كانت تطل بين الفينة والفينة من الباب كأنها ترقب شيئاً تخشاه ، وتعود إلى مجلسها هذا أشد اضطراباً ووجلا .

فلما خلت العيادة جئتها متلطفاً

– هل من خدمة ؟

– كلا

واطرقت برأسها .

– اذا كنت ترغبين سؤالا أو فحصاً فقد انتهيت من عملي واستطيع أن أتفرغ اليك .

– عفواً ليس ما بي من مرض ولكن شباناً من طراز

جيمس دين يلاحقونني طوال الطريق ويسمعونني الفاظاً نابية ، ويسدون علي الطريق اينما سرت فلما ضاقت السبل في وجهي لم أجد سوى باب عيادتك ملاذاً الجأ اليه ، ريثما يتطرق الملل إلى نفوسهم فينصرفون ، وخشيت أن يتعرفوا على موقع داري فيسيئون إلى سمعتي في الحي بتتبعهم خطواتي في الصباح والمساء .

قلت هوني عليك .. فالأمر أيسر مما تظنين .. والتفت ابغي طردهم فاذا بها تقول : « مهلا يا دكتور أنا أخشى أن تخبر الشرطة وهذا يتطلب مني أجوبة عن أسئلة .. ودخول مخافر الشرطة مما يسيء إلى سمعتي .. وأخشى أن توبخهم فيسمعوك سيء القول .. انهم أشباه رجال وليس لهم من صفات الرجولة الا الشارب والبنطال .. لا هم لهم الا أن يلغوا في اعراض الناس ويذرعوا الطرقات متسكعين عاطلين في حين أن الأمة العربية أحوج ما تكون إلى سواعد أمثالهم .. »

قلت « هوني عليك .. فلا هذا ولا ذاك .. »

فتحت الباب فوجدت الشبان الثلاثة على الدرج في انتظارها كما تنتظر الكلاب الفريسة فأسررت اليهم شيئاً لم يلبثوا بعده أن نظر بعضهم في بعض واندفعوا ينهبون الدرج نزولا من غير ان يفتحوا فمهم بكلمة ..

وعدت إلى البنية وقلت لها :

– الآن تستطيعين المضي إلى دارك في سلام .

– وكيف صرفتهم ؟ لقد اعيتني الحيلة معهم فلا رجاء نافع ولا تقطيب ، حقاً ، يا دكتور صرفتهم ؟

قلت لها ضاحكاً :

– كلمة سحرية لا يعرفها غيري سألتهم عن سبب وقوفهم فقالوا اننا ننتظر قريبتنا فطلبت اليهم اجور الاستشارة والفحص على الكهرباء ..

ثمن الدعاوة..

الاثنين

عرفته منذ ستة أشهر تقريباً جاءني من دير الزور وهو يحمل على أكتافه وزر الف مرض ومرض وانصاح الفحص من عدم وجود مرض عضوي في جسمه ، ولكن الفراغ والشباب والمال صرف دماغه عن التفكير في غيره إلى التفكير في جسمه وقد ذكر لي انه عولج في حلب سنتين بدون طائل وانه دخل مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت ثلاث مرات واجريت له جميع الفحوص الشعاعية والمخبرية فلم يكتشفوا علته أو يجدوا سبباً يعللون به ما ينتابه من وساوس وآلام .. وتبين لي أن علاجه الحقيقي يكمن في أعماقه وفي لاشعوره .. وانه يجب علي أن اتحلى بالصبر ، فأسايره واداريه ريثما اقتلع من أعماقه رواسب الماضي وما زرع فيه من أوهام واسقام فأوحيت اليه بالثقة وجعلته يشعر بأنه في بيته لا في عيادة طبيب .

ثم عاد إلى بلده ليمطرني برسائله الطويلة وقد تربو صفحات الرسالة الواحدة على العشر فأتجمل بالصبر واجيبه بما يبعث في نفسه الثقة ويرفع معنوياته

جاءني اليوم يرجو أن اصحبه إلى اخصائي بالامراض العصبية لنتفق سوية على خطة تقضي على البقية الباقية من أمراضه لقد شعر أنه في تحسن مستمر ، ولكنه يرجو الشفاء الكامل والعافية التامة .

أخذته بسيارتي إلى الزميل زهدي المنجد وتداولنا في أمره ساعة وبعض الساعة ، وتم الاتفاق فيما بيننا على اجراء فحص شعاعي نستطلع بوساطته حجم القلب والكبد وسلامة الرئتين ، وبعدها أكتب له العلاجات التي رأيناها تفي بالغرض .

عدت به بسيارتي ايضاً ، وأجريت الفحوص اللازمة رغم ارتباطي بمواعيد أخرى ، ورغم انتظار مرضى آخرين وحررت له الوصفة اللازمة وارفقتها باخرى تتضمن النصائح الصحية وقائمة

الطعام .. وما شاكل ذلك .. ولما طال وقوفه وعيل صبري ، دعوت له بالشفاء راجياً أن يفسح المجال لغيره من المرضى المنتظرين . ولما توجه إلى الباب نظرت اليه الممرضة مشدوهة وتقدمت اليه باستحياء طالبة الاجر .

اضحكه طلب الممرضة حتى كاد يغيب على قفاه وقال لها بين الضحكات

— ومن قال لك ان الدكتور يقبل مني أجراً .

المرضة لا تجيب مندهشة ، ولكن وجهها وحده كان يتساءل عن سر رفضي المزعوم لاجر لا تشك في أني استحقه بعد أن اضعت نصف يومي في خدمته .

وتابع الرجل :

— نحن أصدقاء قدامى يا آنسة ، الرسائل بيننا لا تنقطع ، وأنا اذا شئت أن تزدادي معرفة داعية لطبيبك في دير الزور وتوابعها .

وكنت استمع إلى الحوار واتظاهر بأني مشغول عنه فتدخلت قائلا :

— كم دفعت في مستشفى الجامعة الاميركية ؟

— أكثر من عشرة آلاف ليرة سورية ولم استفد ما يساوي قرشاً واحداً .

— وكم دفعت في حلب ؟

— ما يزيد عن هذا المبلغ .

— فبكم تقدر ثمن دعاوتك لي في دير الزور وتوابعها ؟

— أعوذ بالله ..

— اسمح لي أرجوك بأن أكمل .. وبكم تقدر أتعابي ؟

— والله انت تستأهل أكثر من المال .. أكثر .. أنت تستأهل الروح .

— لا سلم الله روحك ولكنني أرجوك أن تحسب لي ثمن دعاوتك لي وتطرحها من الاجر الذي استحقه مقدراً بالدراهم لا بالارواح .. واطرح اذا شئت اثمان الطوابع التي الصقتها على عشرات الرسائل اليك وأجرة سيارتي — التاكسي — ووقتي .. الخ .

ـ رأيتك تفتح لي قلبك وتعاملني كأخ فظننت انك ستعفيني من الاجور .

ـ اعفيك فعلا ، ولكن من يدفع للدكتور زهدي المنجد ؟

فاندهش .

ـ انه لم يطالبني بأجر ، وقلت في نفسي انه فعل ذلك لاجلك .

ولم أعد اطيق صبراً ولكنني تحاملت على نفسي وقلت للممرضة

ـ دعيه ، أخاف أن تعاوده علله اذا نحن أثقلنا عليه .

فسر سروراً عظيماً وخرج قائلا :

ـ بالله امانة ، سلم لي على الدكتور المنجد ، سأكون داعية له أيضاً في كل مكان وآن ..

الاحد .

الطبيب اكثر الناس اختلاطاً بالمجتمع واحتكاكاً بأفراده ، وهو بحكم صنعته مضطر الى التمرس في مخاطبة الناس على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم الاجتماعية .

واذا كان سائق التاكسي او خادم المطعم او البائع يحتك بأناس كثيرين .. الا ان الطبيب يدخل الى اعماق هؤلاء الناس ويتعرف على دخائل نفوسهم .. كبيرهم وصغيرهم .. غنيهم وفقيرهم .. يأتمنونه على اسرارهم ويجدون عنده ملاذاً يلجأون اليه كلما مسهم الضر ، وأحاقت بأجسامهم الامراض وما يكرهون او المت بنفوسهم النوازع وما يأنفون.

ومن المفارقات التي صادفتني اليوم دخول سيدتين يدل هندامهما على انهما في بسطة من العيش . وتدل مشيتهما وينبئي حديثهما على مركزهما الاجتماعي الرفيع .. دخلتا بعد ان خرج من الباب نفسه بائس فقير ، يجرر اطفاله الثلاثة بأسمالهم البالية التي لا تكاد تستر عوراتهم .

ذكرت لي احداهما ما ألم بها من مرض عجز عن تشخيصه نطس الاطباء .. وقد يئست من الشفاء ولم يعد لها ثقة بطبيب او علاج ولكنها سمعت بعضهم يثني علي فأحبت ان تدلي بدلوها بين الدلاء .. وتجرب حظها علها تتخلص من هذا البلاء .. وأنا الآن عندها موئل الرجاء ..

وبعد ان استمعت مطولا الى قصتها وفحصتها بدقة سألتها عن الاسم حسب الاصول فقالت بعد تلكؤ .. « مليحة .. » ولاحظت بطرف عيني — رغم انكبابي على الطاولة — نظرة ارسلتها الى رفيقتها اردفتها بابتسامة

خفيفة .

وبحركة صغيرة رجعت الى تقارير فحوص الدم والبول التي أجريت لها سابقاً فوجدت ان أسمها الحقيقي (عليا) وكانت كنيتها كنية الطبيب المعالج السابق نفسه كما انني انتبهت الى ان هذه التقارير مطبوعة على اوراق مجانية مما يدل على ان الطبيب المحلل لم يتقاض أجراً لصلتها وقرابتها بالطبيب المذكور وكان هذا الطبيب صديقي ولم يتعد حدود الشباب لتكون له ابنة في سن العشرين فهي ولا شك شقيقته ، فأخذت القلم وتوجت الوصفة باسمها الحقيقي علياء .. مع الكنية وشرعت بكتابة الدواء .. وقفت صائحة « ماذا هل تريد ان تكتب لي علاجاً ؟ من العبث ان اتناول اي دواء لقد غدت معدتي صيدلية كبيرة من كثرة ما تناولت .. »

قلت كلا – انها ليست وصفة تشرى من الصيدلية ولكنها حجاب تضعينه على صدرك فيزيح عنه جميع ما الم بك من آلام وأمراض

– أتهزأ بي يا دكتور ؟ . ومتى كنت شيخاً تتعاطى كتابة الحجب ؟

– معاذ الله.. تعالي انظري.. أطلت برأسها على الورقة فوجدت اسمها الصريح .. فاحمر وجهها خجلا وتلعثمت ورجعت بضع خطوات لا تجد جواباً ، قلت :

– لا تخافي ولا تجزعي ، فلن يعلم أحد بزيارتك.. ولا غضاضة عليك او على أخيك الطبيب ان تعالجي عندي ، فأنا استنجد عادة بزملائي كلما حاول المرض زيارة احد أبنائي او افراد عائلتي لان (السكينة لا تقطع بنصابها) كما تقول العامة .

– ولكن خبرني – بالله عليك – كيف عرفتني وعرفت اسمي .

– انا ما رأيتك في حياتي ، ولم يذكر لي احد اسمك او يخبرني عن عزمك على استشارتي لقد عرفت ذلك بطريقتي الخاصة .. إنني كالقطار البطيء يقف على جميع المحطات الصغيرة .. وذلك سر نجاحي .

– اعتذر اليك عن اخفاء اسمي الحقيقي.. لقد ضننت به حفاظاً على مقام أخي الدكتور فاسمه ملء الاسماع وخشيت ان تتخذ استشارتي

لك موضع طعن في قدرته .. ولكنني بعد ما رأيت منك .. سأثابر على تعاطي العلاج وأنا واثقة من الشفاء .

– قلت ان قهر المرض رهين بأمرين : الثقة وتشخيص المرض ، فاذا فقد أحد هذين العنصرين عز الشفاء ، واستعصى الداء ..

الثلاثاء .

تربطني بالدكتور رشيد الدقر ، عميد كلية الحقوق في الجامعة السورية ، اواصر صداقة تمتد جذورها الى خمس عشرة سنة خلت ، ورغم اني آنس الى مجلسه واستمتع بحديثه ، فقد شغلتني اعمالي الخاصة وما يتطلبه اصدار المجلة من وقت ، عن زيارته مدة طويلة ولكنني استطعت ، هذه الليلة ان أنزع نفسي من مشاغلي بعد ان شعرت بأثر الارهاق والجهد في عقلي وجسدي ، وذهبت الى داره في زيارة عائلية خاصة .. وليس ادعى للراحة الفكرية والعقلية من الركون الى صديق تطمئن اليه وترسل نفسك على سجيتها ، فلا تتقيد امامه بحديث او بحركة .. ذلك ما يسمونه اليوم في لغة الطب بالاسترخاء ، لمعالجة التنرفز العصبي والارهاق وتشقق الحديث وتشعب ، وجاء ذكر العمل ومتطلبات الحياة ، وان الجهد الذي يصرفه الشرقي يفوق جهد الغربي اضعافاً مضاعفة لاننا خلقنا في عصر استيقظت فيه امتنا من سباتها ، فوجدت نفسها متخلفة عن ركب الحضارة والمدنية وان طموحنا وآفاقنا العربية ، تدفعنا الى مضاعفة الجهد للحاق بالركب وللنهوض من الكبوة وهكذا فكل فرد من امتنا طبيباً كان ام محامياً ام عاملا ام تاجراً يبذل الجهد الكثير على حساب صحته وراحة جسمه .

وفجأة التفت الدكتور رشيد يسألني بالله عليك خبرني اين تجد الوقت الكافي لتحرير المجلة وتأليف الكتب وممارسة صناعة الطب في العيادة ، وبخاصة الاجابة عن هذه الاسئلة الكثيرة بالمجلة .. وارجو ان تتحمل صراحتي .. وتخبرني كيف تستطيع خلق هذه الاسماء والاسئلة كي تقدم للقراء معلومات مكثفة عن طريق الاجوبة ؟ ولما استبان الدهشة على

وجهي ، استدرك يقول : ليس في عملك ما يشين او ينتقص من قيمته ، اننا معشر الاساتذة في الجامعة نحاول احياناً ايضاح بعض فقرات من موضوع سبق ان القيناه على طلابنا او نرغب في تسليط الانوار على ناحية منه عرضت لنا ، فنتخذ طالباً مجهولا – لا وجود له وسيلة للاستدراك قائلين استوضح احد الطلاب عن النقطة الفلانية وننطلق بعدها في الاسهاب والايضاح ..

فانبرت زوجي وقالت ليتك تعيش بين ظهرانينا اسبوعاً واحداً فقط اذا لضجرت ووليت منا فراراً ، ستنفرك من غرفته اكداس مكدسة من الرسائل ، لا تكاد تنزاح في يوم الجمعة – يوم الراحة الاسبوعية عند الناس ويوم العذاب المضني في دارنا – حتى تبدأ نشأتها من جديد .. ولا تكاد تنطفئ النيران المشتعلة في الرسائل القديمة حتى تنهال علينا رسائل جديدة لا حصر لها .

قال الدكتور رشيد متصنعاً الجد :

– وكيف يوزع اوقاته بينك وبين زوجته الثانية ؟

فتضاحكت وقالت لقد اخطأ زوجي – كما يقول – وتزوج مرة واحدة ولن يكرر خطأه ثانية .. وليته يفعل ، لان « الضرة » ستكون حتماً ارحم من هذه الكتب لانها تكلمني واكلمها ، وقد ابثها همومي وشجوني ، أما هذه المكاتيب فمحرم علينا الاستئناس بما فيها ، او النظر اليها ، وهي تباعد بيننا وبين زوجي ، لانه اذا انصرف الى فض غلافاتها انفصل عنا بجسمه ونفسه واذا كلمناه لم يسمع واذا طلبناه لم يلب .. يعيش من اجل المجلة ولا يحيا الا في محيطها .. وهو راض بقيده الحديد ، وسعيد بسجنه العتيد ، وللناس فيما يعشقون مذاهب ..

قلت هوني عليك..لا ينجح امرؤ في أمر، او يتفوق في مهمة الا ويدفع الثمن .. فأنت تدفعين ثمن استشارات السائلين وأنا انسى همومي بقراءة هموم المستشيرين ...

كنت على موعد اليوم مع استاذ يمتحنني ، ويختبر معلوماتي الطبية ، ثم ينبئني بهدوء انني فاشل .. نعم لقد خلفت مقاعد الدراسة منذ امد بعيد ، ولكنني استبدلتها بمقاعد داري ومكتبي وعيادتي وكل يوم اجتاز امتحاناً عملياً عند فحص كل مريض .. وفي كل يوم استكشف جديداً ، وأضيف إلى معلوماتي طريفاً وتليداً ، وذلك عندما انكب على المجلات العلمية والكتب الطبية انبش ما في بطونها ، وافتش ما بين سطورها ، عن جواب لسائل ، أو عن قبس لحائر ، منصرفاً عن شؤون داري وعيالي مما أدخل الضجر على نفوسهم وجعل زوجي تتأفف وتقول أتزوجت طبيباً يرفه عني ، أم طالباً أخدمه بدلا من أن يخدمني . ولم يخطر ببالي بعد هذا ورغم جهدي أن اتعرض إلى الهزء والسخرية على يد أمي لايفقه القراءة والكتابة ، ثم ينبئني ببساطة وسذاجة انني لم انجح في الفحص ، وانني فاشل ..

واحب ان اعترف هنا ان الغرور كان يملأ نفسي أحياناً ، ويزين لي الشيطان أن استغل علمي وجهل بعض مرضاي أحياناً أخرى فأمزج علم الطب بعلم النفس ، وانهج نمطاً جديداً في مخاطبة المرضى وفحصهم ، متنكباً الاطباء إلى طريق لم يألفوها ، وانماط لم يحذقوها .. اذ اكسبني المران الطويل واضطراري إلى اجابة القراء والمستمعين خبرة فيما يعتور سكان هذه البلاد من أمراض جعلتني استبق المريض أحياناً في سرد شكاته وآلامه فاذا كانت الزائرة المريضة كهلة تجاوزت الاربعين رحت اسرد لها أعراض سن اليأس الكلاسيكية المذكورة في

الكتب .. فأقول لها انك تشعرين بالتورد الدافىء (هبلات حارة) ، وتضيقين ذرعاً بالدار وبمن فيها ، وبالطبيعة وازاهيرها ، وقد تنقطع دماء الطمث شهراً لتعود فترة ثم تغيب فتعجب لكلامي وتغادرني وكلها ايمان وثقة بوقوعي على مكمن الداء وتمكني من استئصال شأفته .. واذا كان المريض يافعاً وكان ضغطه منخفضاً وصفت له الدوخة التي تعتريه عند الحركة أو النهوض من بعد جلوس وهكذا كنت استكشف من حديث مريضي كنه مرضه فأعدد عوارضه وصفاته فلا يخرج من عيادتي الا وهو قانع بامكان برئه وشفائه وكان يغالي بعض مريدي ومرضاي فيعدد مناقبي ويذكر فيما يذكر انني منجم (وفتاح فال) لا أكاد انظر المريض داخلا حتى استشف علته وأمسك بزمام مرضه .

حتى جاءني اليوم فلاح من أقصى الشمال قائلا لقد سمعت عنك الكثير ، وكلي ثقة بمهارتك وبطبك . فلما نظرت اليه متسائلا مستفهماً قال « ولماذا اسموك طبيباً عليك بجس النبض والتعرف على المرض والله لن اذكر لك شيئاً مما يؤذيني » .. أخذت السماعة مرغماً ورحت أفحص جسمه عضواً عضواً فوجدت القلب ينبض كالساعة ، والكبد في حدودها الطبيعية ، واللسان نظيفاً ، والبطن لا عوج فيها ولا التواء وأخيراً عيل صبري فالتفت اليه متحيراً وقلت أراك سليم الجسم معافى . وانك تصيب من الطعام أكثر مما يصيبه اثنان او ثلاثة ، وتكمن في جسمك قوة تصارع أمثالك فيستكينون لك .. ان صحتك ولله الحمد بخير وعافية .

نظر إلي باستهزاء وقال « اتظنني اسعى اليك من مسافة خمسمائة كيلومتر أفارق أهلي وأتكلف أجور النقل ومصاريف المعاينة لانظر إلى طلعتك السنية وقامتك البهية دون أن يكون بي مرض ما ؟ أعترف اذن انك لم تعرف مرضي ولم تكشف علتي ، لا كما يذيعون عنك في طول البلاد وعرضها .. انني يا صاح اشكو البواسير وهي تنزف بين شهر وآخر .. فأين علمك ، وأين دعايتك ؟ »

فضحكت .. وضحكت ، وشر البلية ما أضحك ، ووجدت في مخاطبي الامي استاذاً القمني حجراً وعلمني درساً لم أجده في الكتب. علمني ان ابتعد عن الغرور ، وأن استنكف عن النزول إلى مستوى المرضى الجهال ، وان ادع الطب متربعاً في برجه ، متساوقاً مع العلم والمنطق ، رضي المرضى بذلك عني أم لم يرضوا

الخميس .

كان بعض بريدي هذا اليوم شعراً .. او ان شئت زجلا وشعراً والزجل ، أغلب الظن ، احتاجه الناس منذ ان اختلفت لغة الكتابة عن لغة المحادثة والاختلاف لا ينفك يهون مع انتشار الثقافة ولكن منذ الاندلسيين والزجل لون نطرب له ، وهو اداة للتعبير ، فيها بساطة وعفوية اذا تناولتها يد الصانع الفنان . والحقيقة أن هذا الكلام ينطبق على الشعر الفصيح ولكني – وأنا لست شاعراً ولا زجالا – أظن ألا بأس في أن يظل الفنان كلاهما .. أن يكون لكل عالمه ، ولا أحسب أن في ذلك ضرراً على الشعر .

وليكن القارىء هو الحكم ..

وهاك الزجل .

إلى الدكتور صبري القباني

من الضعيف اليه تعالى ، لا في خميسة

جنبي انخلع والقلب ضعفان

فين الطبيب المداوي صاحب الوجدان

فين الابر والدوا والمرهم الشافي

صار العمر من كتر الوجع تعبان

صار البدن مسقوم كله هموم

في بحر طامي الموج ، غرقان

الخبز متلوف ما في غذا كافي

ضايع ما بين الخباز والطحان

السمن ماكو خبر ، والرز متعجمز

أما العدس والفول بالرنان

والله دماغي نشف يا صاح

غير الفلافل ما عاد فيه للطفران ؟

هات المقوى وهات الغذا منك

فيتامين أ وب وعصير الرمان

كبده وطحال وحليب مسحوق

شغل الأجانب من ماكله قرفان

أعطينا منك نصائح يا سيدي الدكتور

أحسن نصفّي في خبر من كان

أنت النطاسي وأنت صاحب الوجدان

وأنت في علم الطب « لقمان »

وأما الشعر فأرجوزه بعث بها صديق تحدثت عنه في الماضي ، كنت أهديته مصباحاً ، فكانت هذه الارجوزة .

شكراً ، لقد وصلني المصباح

وبلني ضياؤه اللماح

وطاف في البيت من الانوار

بحر من العقيق والنضار

أمس جلست والدجى من حولي

خائفة ليس لها من حول

سدولها تخاف مني القربا

لم لا وقد أشهرت سيفاً غصبا

أوقفها بعيدة عن مكتبي

عن جنة للنور صارت ملعبي

شكراً واني يا أخي شكور

ما كرت الايام والدهور

شكراً لك الهدية الجميلة
واللفتة اللطيفة الاصيلة
قد قيل لي انك لما زرتنا
بالطرفة الثمينة — اعتذرتنا
وقلت للام مقالا لم يزل
في قلبها بيادرا من الجذل
أأنت من همس الشعاع كنتنا
أم من جفون الزهر قد جبلتنا
فعلِ من نبع الصفاء وانهلِ
واهزج على ضفافه وهلل .
يا صاحبي ان لساني عاجز
وهو — كما عرفت — بثٌ ناجز
انظره اذ رام المديح قصرا
ومثلما رأيت قد تعثرا
أغفر له فالقمة المنيفة
تعجز عنها الاعين الضعيفة
والوتر الساذج ماذا يعزف
في وصف بحر للندى لا يوصف.

حباب..

السبت .

كانت الممرضة تقف بالباب الموارب وتشير بهزة لطيفة من رأسها الى «صاحب الدور» او صاحبته فيترك ما في يده – من مجلة او صحيفة – ويقوم في صمت ليدخل على غرفة العيادة . ويكاد هذا النسق يكون عرفاً يحترمه الناس جميعاً ، من الممعن في المدنية الى الغريق في البداوة . ولعل صمت العيادة والغرف الموصدة والممرضة تخطو في خفين أصمين مما يعين على حفظ هذا النسق ويجنب الاطباء الازدحام على الباب والجلبة والتدافع الذي نراه في موقف الباصات والترام ..

ولكن رجلا في حوالي الاربعين طفق، ذلك اليوم، يعكر هذا العرف، كان كلما واربت الممرضة الباب اندفع اليه وجعل يقول لها ملحاً« أنا مستعجل يا ستي .. لا استطيع الانتظار » .. ويعود الباب الى الاغلاق وأخلو أنا بالمريض صاحب الدور .

وفي احدى الهجمات كان المريض تحت الفحص سيدة لا تزال متمددة على طاولة الفحص ، واذا صاحبنا تكاد اندفاعته ان تلقيه على السيدة المتمددة لولا وقوفي في وجهه عند الستارة الفاصلة بين الباب والطاولة . قلت له مهدئاً :

– على رسلك، ما الامر ؟

– دخيلك يا دكتور ، القضية مهمة ومستعجلة .. .

– طيب يا حباب ، انتظر حتى تخرج السيدة .

وعاد الى مجلسه قلقاً مضعضعاً متأففاً . وجاء دوره اخيراً وراح يروي

لي ان مرضه يكلفه من امره عنتا . انه راجع كل اطباء حلب ، نصحوا له ببيروت ، ذهب الى الجامعة الاميركية وكلفته السفرة والفحوص خمسة آلاف ليرة ، نصحوا له طبيباً في طرابلس ، كلفه السفر والعلاج كذا من الاموال ، اشترى كذا ادوية .. انه على استعداد للسفر الى اوروبا .. المال لا يهمه الصحة تاج على رؤوس الاصحاء ..

قلت :

ـ طيب اخلع ثيابك .

ـ لا استطيع .

قال متعجباً :

ـ كيف لا تستطيع ؟

ـ لانني مللت الادوية والعلاجات فلن آخذ بعد اليوم اي علاج.. والفحص عندك سيكلفني أجراً .. وأنا غير مستعد للدفع .. فاذا كنت تضمن شفائي فأنا على الاستعداد للقسم لك وبالقرآن وبالانبياء انني اجزيك حقك وزيادة ..

وتركته يروي لي مصائبه في العقاقير وطفقت اخط اسطراً غير مفهومة على قطعة من الورق امامي لم البث ان دفعتها اليه . قال

ـ ما هذا ؟ وصفة طبية ؟

ـ نعم .

واي نوع من الوصفات هي ؟

ـ وصفة قديمة ، انها حجاب تلبسه فيما يلي الصدر لا يكلفك مالا ، ولا تحتاج معه الى دواء وفيه البرء والشفاء والله وحده يضمن لي ولك البقاء .

مرة تكفي ..

الاثنين .

كانت سيدة نصفاً على محياها سيماء الجد والوقار جاءت تعودني شاكية الدوخة والصداع والقيء أحياناً وقلة الشهية للطعام أحياناً كثيرة ، فحصتها فوجدتها حاملا وان ما تشكو منه اجمالا ليس الا الوحام بأعراضه

جميعاً . قلت :

– اكتب لك وصفة ، حبوباً تعينك على تحمل هذه الفترة الموقتة العصيبة . فردت علي متجهمة الوجه .

– ما لهذا اتيت .

– اذن ؟ ..

– جئت ابغي زرقة تخلصني من حملي او عملية كورتاج اذا فات اوان الزرقة ..

رحت افهمها ان الاجهاض لا يجوز لا قانوناً ولا شرعاً ولا انسانية . واذا هي تقاطعني قائلة :

– انك مضطر الى مساعدتي .

– ولماذا بربك ؟

– لانك السبب في حملي .

– أعوذ بالله . انا لم اكن قط امرء سوء ، وما عرفت حضرتك قبل يومي هذا .

– أما انك لا تعرفني فهذا صحيح ، ولكني انا عرفتك في كتابك «اطفال تحت الطلب ومنع الحمل» . لقد اتخذت هذا الكتاب وسيلتي طوال السنتين الماضيتين ، وخيل الي انه الحق الذي لا يجيئه الباطل ، واذا انا اقع ضحية ثقتي به .

فأغرقت في الضحك ثم سألتها متعجباً :

– كيف صحت قاعدة ضبط النسل ومنع الحمل مدة سنتين ولم تصح الآن وهل أنت واثقة من انتظام دورتك الشهرية ؟ ..

فهزت رأسها ايجاباً واضافت انها سافرت وزوجها خارج دمشق ولم تكن معها مفكرتها ولا التقويم الذي تعتمد عليه في ضبط النسل وانها قد تكون خرجت عن القاعدة مرة واحدة .. واردفت :

– صدقني انها مرة واحدة لم تتكرر والله على ما أقوله شهيد .

فسألتها وانا لا ازال اضحك .

– وهل يحتاج تكوين الجنين الى مرتين ؟

خفت ان يأكلني..

كنت اليوم على موعد مع عدد من القصص العجيبة عن الأكولين النهمين .. كانت كل قصة تبز الأخرى بغرابتها ، كانت كل قصة تروى بشكل يثير الضحك ولا يصدقه العقل وفي طبعي أن اتقبل نوادر الذين يأكلون فلا يشبعون على أنها مادة للتسريه ومدعاة للترفيه ، وان عنصر الصحة فيها ضئيل ، وعنصر المبالغة هو الذي حور القصة واخرجها إلى عالم الوجود ، مثيرة ، مشوقة ، يسمر بها الساهرون لادخال السرور على انفسهم وتطعيم لياليهم بمباهج تنتج عن حوادث تروى بشكل مألوف وفجأة وجدت نفسي وجهاً لوجه ، أمام احدى هذه القصص التي بدلت رأيي عندما جابهتها اليوم .

منذ عشر سنوات ، عرفت مختار قضاء تل شهاب ، وكان يتردد على عيادتي كلما أم دمشق أو ألم به مرض ، وكان يعترف لي بنهمه وشرهه ، وكنت انصحه واردد على مسامعه الحكمة العربية القائلة « البطنة تذهب الفطنة » . جاءني اليوم ومعه بعض اصدقائه يحدقون به ، والهلع باد على قسمات وجهه، وفي انفاس متقطعة صاح بي :

— اسرع يا دكتور الحقني كدت أموت مساء أمس ، انتابتني نوبة كادت تودي بحياتي ومرت علي ساعات خيل إلي معها انني مفارق أهلي فراقاً لا لقاء بعده . وتابع يقول . كان الألم ينبعث من هذه الناحية — مشيراً إلى بطنه — كنت أشعر أن انفاسي تتقطع ، ويخيل إلي أن حصيات مرارية ستنهش كبدي اذا لم أسع إلى تفتيتها أو استخراجها وازداد لهاثه ، وهو يتوسل إلي أن افحصه بدقة ، وآخذ لكبده

صوراً شعاعية وابذل جهدي وعلمي وامكانياتي في سبيل وضع التشخيص.
وبدأت عملي بهدوء ، يتنافى وثورته .. وراحت اصابعي تتحسس اعضاءه ، وتتلمس مواطن الداء فيها ، فلم أجد أي عارض يدل على ما توهمه من حصيات وزائدة دوديه شيء واحد بدا جلياً .. كانت بطنه منتفخة مليئة بالغازات ، وكانت هذه تضغط على صدره كالكابوس.
وقلت له مطمئناً .

– لا تنزعج ، فلا خوف على كبدك لان كيسها الصفراوي سليم .. أما مرضك فيكمن في شرهك وحبك للطعام . ولو اعتدلت فيما تأكل أو تشرب لوفرت على نفسك الهلع وعلى جسمك الألم .

وظهر التأفف على وجه المريض وبدا على قسماته عدم الايمان بما قلت وحاول اقناعي بوجود شيء غير طبيعي في مرارته (الكيس الصفراوي) وطلب تصويرها شعاعياً للتأكد من صحة ادعائه ، واتهمني بالمغالاة في اتهامه بالنهم .

وعلى الرغم من يقيني بصحة تشخيصي وافقت على طلبه التصوير الشعاعي مردداً الآية الكريمة . « قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » .

وعاد الرجل بعد بعض الوقت ، في وجهه فترة وفي عينه عبرة .. وقف حائراً وبشيء من الخجل قال :

– لم يجد طبيب الاشعة في الصور حصيات .. ولكنه وجد في البطن غازات .. انني لم اتناول أمس الا كيلو من اللحم المشوي .. وخمسة أو ستة أرغفة من الخبز فقط .

قلت . وكيف استسغت هذا الطعام الجاف وكيف ازدردته بدون لبن أو سلطات ؟

فقال بخيلاء ومن قال لك انني بخيل على نفسي ، لقد تناولت اللبن والمخلل والسلطات ثم الفواكه فضلا عن العصير

قلت . اجمع كل هذا . كيلو لحم ، وكيلو خبز ، وكيلو لبن ، وكيلو فواكه ، واربعة كؤوس من العصير والماء تجد المجموع يزيد

عن خمسة كيلوات بالاضافة إلى كمية الهواء التي ازدردتها مع الطعام ، فأين استقرت وعلى حساب أي عضو في أحشائك تربعت ؟

وهنا تعالت ضحكات رفاقه واصحابه الذين صاحوا به جميعاً

— وما فعل الله بالدجاجات الاربع يا أبا القاسم ؟

فلم يجب ، واستدرت أنا نحوهم متسائلا فقالوا « بعد أن انتهى الطعام وكدنا نغادر المطعم ، لمح عن بعد أربع دجاجات مسلوقة ومرصوصة وفاتحة صدورها باغراء لم يستطع مقاومته فعاد إلى المائدة والتهمها ، ولم يترك منها الا العظام .. »

وتأفف من تدخلهم وقال : « والله يا دكتور لم أتناول مع الدجاجات لقمة خبز ، لقد التهمتها لانني كنت أشعر بالضعف يدب في أوصالي والذي أعلمه أن عرق عظام الدجاج مصمصتها يقوي المفاصل والاعصاب ! »

وحيرني الرجل .. فرحت استعيد القصة من رفاقه واستفسر عن تفاصيلها ، وكانوا يعيدونها على مسمعي مقسمين وكان الكره لحديثهم يبدو عليه ، ولما رأى صاحبي الدهشة تعروني قال

— اظنك تتهمني بالاكثار من الطعام — كعادتك — والله أنني لم آكل كعادتي ، سل رفاقي الساخرين .. كم من المرات تناولت خروفاً كاملا بمفردي ؟ دون أن اصاب بأي نفخة أو ألم أو نوبة ؟ فما بالي اليوم لا أتناول ربع ما اعتدت فأمرض وأصاب بالألم المبرح .. لا بد لك يا سيدي الطبيب من اصلاح وضعي واعادتي سيرتي الأولى .

وسبح خيالي في تصورات جامحة تصورت الخروف وضخامته ورحت أقارن بين حجمه وبين حجم بطن صاحبي ، ورحت اتساءل بيني وبين نفسي ، أية معدة مطاطة هذه التي تستوعب ما ينوف عن عشرة كيلوغرامات من الاطعمة واي بطن هذا الذي يتسع ويتسع ليحوي خروفاً كاملا وتوابعه من الماء والادهان والالبان .

وفيما أنا سارح في تصوراتي ، سمعت مريضي يستحثني على اعطائه علاجاً يعيده سيرته الأولى ، لانه لم يكن في الماضي يصاب بأي

نفخة فما باله اليوم لا يتناول نصف الكمية حتى ينتابه الألم ؟

ونظرت اليه بأناة وقلت له « مهلا ، لقد مضى علي زمن قد يزيد على الاربعين سنة لم أشعر خلالها بألم في هذه السن ، فما بالها اليوم تخزني وتؤلمني ؟ وهل تظن يا صاحبي أن اعضاءنا قدت من حديد فلا تبلى ولا يدب اليها الوهن أو الخلل ، وتظل تحت رحمتنا طيلة العمر ، دون أن نعنى بها أو تأخذنا الشفقة عليها ؟ »

ولكنني أحمد الله الذي باعد فيما بيننا بالمسكن ووفر لنا الطعام والغذاء فليس بمستبعد عندها ان تثور معدتك يوماً فلا تجد ما تسد به جشعك سوى طبيبك وكم للناس عند الاطباء من ثارات !

أفكر في اختلاف انماط الحياة وانظمتها باختلاف المدن والامصار ، وانا انظر إلى ذلك الصف الطويل من البشر (والفرنسيون يسمونه ذنباً) في أحد شوارع موسكو رتل ثنائي يقف في صبر ، والهواء لاذع لاسع كأنه الزمهرير ، ورذاذ من المطر الصقيعي لا يحور إلى هدوء ، ولا يترفق بهؤلاء الواقفين تكاد ارجلهم تتورم من طول وقوف وسألت صاحبي ، وهو أعلم مني بالقوم ، ان يحدث لي من امر هذا الصف ذاكراً ، فلم يقل لي ما قاله الخضير لموسى « انك لا تستطيع معي صبراً » ولكنه أجابني انه لا يدري ثم اضاف لا بد انهم راغبون في شراء مادة غذائية .. لم ترضني اجابته . ما قلتها صراحة ولكنني عبرت عنها على طريقة التمثيل الايمائي « البانتوميم » اذ اخذته من ذراعه واوقفتني واياه وراء اخر اثنين من الرتل « اي الذنب البشري » ولما فهم اني واقف لا اريم ، رفع إلي عينين شال حاجباهما من دهشة وقال : ما دمت مصراً فانظرني في مكانك قليلا قال هذا ودنا من امرأة عجوز كانت تحمل محفظة جلدية وكيساً من شبك وتقف كما يقف الآخرون صابرة مصابرة مثلهم وسألها واجابته ، فعاد إلي عريض الابتسامة وقال : ها اننا قد تزودت بما لا يغنيك عن هذه الوقفة وهذا الانتظار فلنستمر فيها ، قلت « لم أفهم » . قال « العجوز اعترفت انها ليست بأعلم مني انها تقف هكذا ، لوجه الامل ، اذ ما دام الناس واقفين في مثل هذا الطقس السالخ للجلود فلا بد ان الصيد في جوف الفراء . . .

استبد بي حب الاستطلاع ايما استبداد صف طويل من البشر يتجاوز المائة متر لا يريم واحدهم من مطرحه ، ولا يعرف ما سيطالعه او سيشتريه ، انه لامر حري بالاستطلاع ، فلم اتزحزح قيد انملة كأنني جلمود صخر حطه السيل من عل وانتهى الامر .. ويظهر ان شده وجذبي ، ذهابه وايابه قد اقنع القوم بأنا لا نحمل الصف محمل جد ، فلما انتصرت أنا واذعن صديقي وجدنا انفسنا ، كرة اخرى في آخر الصف .

واستعنا على وقفتنا بالثرثرة ، ثرثرة طال امدها حتى « قلت ليس بمنته وليس الذي يرعى النجوم بآيب» ، هذه هي نجوم الظهر ، كما يقول امروُ القيس على اية حال كنا نتقدم ولكنه كان تقدماً تخجل منه السلحفاة نفسها .

وبعد هياط ومياط شارفنا منتجع الرتل ومقصده كان ثمة بائعة امامها صندوقان اثنان تثرثر مع الاثنين الوحيدين اللذين كانا يتقدماننا آنئذ . ومددت رأسي انظر في الصندوقين واذا احدهما افرغ من فؤاد ام موسى واما الآخر ففيه برتقالتان هزيلتان اثنتان ، هما البقية الباقية من مطلب هذا الرتل من البشر ذهلت وحولت نظرة متوجسة إلى صديقي صح ما كنت احذره كان ينظر إلي في شماتة وملامة « لا تهد من احببت » وذكرت بلادي المعطاء ، بلاد الخيرات حيث تتراكم الفاكهة على الارصفة فتغدو متعة للناظرين ...

ما زلنا في موسكو ، ببداية الامسية قضيناها في المسرح حيث حضرنا احدى قطع الباليه ، هذا الفن العظيم الذي نبت اول ما نبت في تلك البلاد الشاسعة العميقة الملونة . انه تعبير بالحركة ، ترافقها موسيقى من أروع ما ابتدع العقل والقلب الانسانيان ، تعبيراً عن الحب والحياة ، عن الصراع والتضاد .. بعد الخروج من الباليه ، أحسسنا ــ صديقي وأنا ــ بجوع شديد ، فانطلقنا في الشوارع الشاسعة العريضة نلتمس مطعماً أو بائع شطائر أو حتى كعكة اذا عز العشاء الطيب ... وعبثاً كنا نبحث ونفتش .

كان كل محل مغلقاً . وصادفنا أحد العرب القاطنين في المدينة الكبيرة فسألناه اعتقاداً منا انه اولى من علم الاماكن التي تفتح ليلا ما لم نعلم . فقال : ليس لكم الا فندق (سماه لنا) فهو يفتح ليلا استجابة لطلبات السياح الغربيين ... وغذذنا السير ، تلسعنا سياط المعدة ، الى ذلك الفندق . وطرقنا الباب فدنا منا حاجب او ما يشبه ان يكون حاجباً . ومن خلف الباب الزجاجي اشار الينا ايماء ايضاً ان « لا سبيل الى الوصال » وخطر لصاحبي خاطر ، ما دام المطعم للسياح ، ونحن سائحان ، فلننبئه من امرنا نبأ . قال صاحبي : اخرج جواز سفرك .

قلت : لماذا ؟

قال : اخرج جوازك ولا تعترضني ...

هو ايضاً اخرج جوازه ولصقه على اللوح الزجاجي للباب وصاح .

– سيريسكي (اي سوري)

وتلطف الحاجب ففتح لنا الباب وسألنا .

– ماذا تريدان ؟

قال قائلنا :

– نريد ان نأكل .

– نعتذر .

– لماذا ؟

– ليس لدينا ما نقدمه اليكما . والاحرى انه ليس لدينا من يقدم اليكما الطعام .

– وهؤلاء الذين يأكلون في ردهة الطعام ؟

– هؤلاء طلبوا ما يشتهون قبل الساعة العاشرة. والعمال قدموا اليهم ما طلبوا وانصرفوا لان لهم حقاً في الراحة كحقهم في العمل .

ورضينا من الغنيمة بالاياب الى ... الفندق . ولكن أين منا الاياب. وهل يكون ايسر من العشاء ؟ هذا ما ظنناه ولكن ما أكثر ما تكذب الظنون . لانا وقفنا على رصيف الفندق – الذي كان قبل قليل منتجع الاحلام المعدية ولكنه لم يلبث ان خيبنا – وقفنا نشير الى التكسيات

المارة ... في البداية كانت اشاراتنا صغيرة ، ثم طفقنا نفتن باختراع ضروب منها ، ثم وقفنا في عرض الشارع نسد عليها السبيل ظناً منا انهم لا يفهمون الاشارات « بالعربي » ... عبث من العبث ! لم يكن يتوقف احد السائقين ، ومع ذلك فقد كان اكثرهم مسرعاً وعربته فارغة لا تقل احد الركاب .

وبعد سين وجيم مع شرطي كان يقف غير بعيد فهمنا هذه الحكمة : التكسيات لا تقف لان دوام السائقين قد انتهى في العاشرة . المشكلة ان موسكو ، بعد ستالين ، قد فتحت ابوابها للسياح الاجانب . الاتحاد السوفياتي كله فتح ابوابه على مصاريعها ، وعاد اصطلاح « الستار الحديدي » نسياً منسياً ولكن موسكو لم تبدل الكثير من انظمتها ، وعلى السياح ان يتأقلموا مع الروس فيأووا الى اسرتهم قبل العاشرة ليستيقظوا مع العمال في الصباح الباكر .. اذ لا مكان في موسكو للكسول الخامل او اللاهي العاطل .

قلنا آخر الامر للشرطي : اذن ما العمل ؟

قال ما معناه . دبرا رأسيكما ؟

الغنيمة امست بالاياب مشياً على الاقدام . هل تعلم ما تعني كلمة « عودة على الاقدام ؟ » اعلم ، وفقك الله ، انهما ساعتان من المشي في الهواء والزمهرير ، افهمت الآن ماذا يعني ان يكون الانسان طلعة مثلي ؟

خروج على «الروتين»

لما عدت من فرنسا الى دمشق بعد ان قضيت رحلة اطلاع واختصاص، واجهتني في المدة الاولى مشكلة لم احسب حسابها في البداية، ولكني ادركت اثناء الممارسة العملية انها من المشاكل التي تعقد مهمة الطبيب الاساسية ولا سيما طبيب الامراض الداخلية. فمن المعروف ان الطبيب الجراح يعمل على الاكثر وهو مفتوح العينين، لانه يكون امام حالة واضحة لها مظاهرها الواضحة. كسر، او رض، او انتفاخ او ورم، تقع جميعاً تحت بصره، او تكون محددة في الصور الشعاعية، وعندئذ يكون الفرق بين جراح وآخر هو الفرق في الجسارة والتجربة وتوفر الوسائل. اما طبيب الامراض الداخلية، فانه مضطر في بعض الحالات المعقدة الى التصرف كما يتصرف المنجم، ويحدس ويخمن بدلا من ان يقطع برأي اخير، وتزداد متاعبه في التشخيص حينما يكون في بلدة ريفية او في مدينة لا تتوفر فيها الوسائل الاولية لاضاءة طريقه الى علة المريض ومنها التحاليل المخبرية والصور الشعاعية وما اليها. وأما المشكلة التي لم أحسب حسابها فهي مشكلة الفرق بين المجتمع المفتوح والمجتمع المغلق، ثم ما يتبع هذا من نفوس مفتوحة ونفوس منطوية مغلقة، واخطر عواقب هذه المشكلة انها تنتزع من طبيب الامراض الداخلية المساعد الطبيعي له في تشخيص المرض، وخصوصاً في الحالات التي يكون فيها المرض ظاهراً في الوجه وفي الحركة واللون، ولا يكون له اثر محدد في اي عضو من اعضاء الجسم.

في احدى هذه الحالات وجدتني امام امرأة شابة لا يشوب صباها

الغض وجمالها الوديع سوى صفرة في الوجه وبطء في الحركة وشعور مقيم بالسأم حتى لكأنها زاهدة في كل شيء . ولم يكشف الفحص السريري عن علة معينة ، فالقلب في حالة طبيعية ، وكذلك ضغط الدم ، بنيتها قوية ، وسنها لا تزيد على الثالثة والعشرين ، وهي من اسرة ميسورة لا تشكو من شيء يتعلق بالتغذية الصحيحة ، ومع هذا فان اقبالها على الاكل محدود ، ولديها شعور دائم بالغثيان .

لم يبق اذن الا الفحص المخبري ، ولكن التحاليل المخبرية لم تنبئ ايضاً بسبب واضح من اسباب المرض ، فلا ديدان في الامعاء ، ولا شوائب غريبة في الدم ، ولا املاح زائدة ، ومع هذا فان هذه المرأة الشابة لم تكن في حالة صحية طبيعية ، ولا سبيل الى تحديد هذه الحالة الا بطرح بعض الاسئلة الصريحة عن حياتها المنزلية وعن حياتها الجنسية بالذات ، ولكنني صدمت منذ السؤال الاول ، وكان غاية في التهذيب والتحفظ ، بانطواء المريضة على ذاتها ، واقفالها باب السؤال والجواب ، والخروج من غرفة العيادة من دون كلمة « خاطركم » .

ثم نسيت هذه الحادثة البسيطة لانها في الاصل من الحوادث التي لا تذكر ، خصوصاً وان المبدأ الاساسي في كل علاقاتي مع الناس ومع المرضى بالذات ، كان ولا زال ان اكون مرتاح الضمير في ما ابذله من الجهد ، وان اصون هذه العلاقات من اي غاية شخصية تخالف احترام المرء لنفسه واحترامه للناس على اختلاف طبقاتهم وفئاتهم .

ولكن ذكرى هذه الحادثة ما لبثت ان ابتعثت من جديد حينما حمل البريد الي رسالة من مجهولة تقول فيها كلاماً ذكرني بعضه بملامح تلك المرأة الشابة التي فارقت عيادتي منذ اشهر وهي غاضبة او كالغاضبة . فكاتبة الرسالة تقطع بأنها مريضة ، ولكنها تعترف بان الاطباء لم يستطيعوا تشخيص حالتها ، ثم تعترف بصراحة انها امرأة متزوجة ، ولكنها لا تزال عذراء النفس ، لم تشعر طوال معاشرتها لزوجها التي مضى عليها ثلاث سنوات بهذه العاطفة التي وصفها الكتاب في الكتب ، او صورها الفنانون بالحركات والسكنات ، والملامح على شاشة السينما ، الا انها

على الرغم من هذا سعيدة في بيتها بما توفر لها من اسباب الرفاهية ، فخورة بزوجها لانه رجل طيب معروف بالكرم والاستقامة ، ولكنه مثل كل رجل شديد الاهتمام بعمله ، يحاول ان يخرج بعلاقاته الزوجية «الروتينية» من طابعها المتزمت المحافظ الى طابع المكاشفة الصريحة ، وبهذا كان جسدها مملوكاً له ونفسها لا تزال عذراء . وتأكدت من صدق ظني حينما عادت المرأة الشابة الى زيارتي في العيادة بعد أيام قليلة من هذه الرسالة ، ولكني رغم يقيني انها كاتبة الرسالة فقد آثرت الركون الى الصمت لاترك لها حرية الاختيار بين الافصاح والكتمان . وقلت

– هل كنت مسافرة ؟ ان السفر مفيد في بعض الحالات

فقالت بنبرة حزينة :

– لست على ما يرام يا دكتور ..

ثم اضافت بصوت هامس كأنما تحدث نفسها .

– لقد بدأت حالتي الصحية تؤثر في استقرار البيت ، ولم يكن لهذه الظاهرة وجود من قبل ، ويبدو ان اعصابي مرهقة .

تصورت حالة هذه المرأة بمثل لمح البصر ، ولم يكن ذلك يحتاج الى اجهاد الفكر ، فالقصة المعروفة تتكرر في هذا البيت ، فان البطل وهو الزوج في اكثر الاحوال ، نشأ على التكتم في شؤون العلاقات الزوجية ، وهو مؤمن بأن النساء يختلفن عن الرجال ، فيكفي ان يكون للمرأة بيت مؤثث على الطراز الحديث ، وزوج يؤمن لها كل ما تحتاج اليه من الضروريات وما يزيد عن حاجتها من الكماليات ، لتكون سعيدة في حياتها محسودة من لداتها .

والزواج عنده ليس شركة بين انسانين متساويين في الحقوق والواجبات ، وانما هو وسيلة من الوسائل التقليدية لتوكيد رجولته وتوكيد ما لهذه الرجولة من امتيازات ، ثم انه مخرج الى القاء متاعبه البيتية على كتف امرأة والتفرغ للاهم وهو العمل . وفي كل مساء يعود البطل الى بيته فيأكل ويداعب ابنته قليلا ، وقد يقترح شراء طرفة جديدة للبيت او فستان جديد للزوجة ، وسواء كان في مزاج طيب او في مزاج سيء ، فان

افراحه وهمومه لا تخرج من صدره الى زوجه لانها امرأة ولان افراحه وهمومه خاصة به ولا يفهمها إلا اقرانه الرجال. اما الوقت الذي تتنادى فيه القلوب الى القلوب كما يكون التنادي بين دعاء الارض وغيث السماء ، فانه يمضي سريعاً صامتاً مكروراً ، وينطفئ فجأة ولا يلبث ان يعلو غطيط البطل ، وتبقى البطلة مسهدة وهي نهب للغضب والخجل والشعور بالهوان والغثيان ، الى ان يغلبها النوم فتغفو ، ثم تصحو في الصباح لتستأنف الحياة على هذه الوتيرة المكرورة التي مضى عليها ثلاث سنوات. وقطعت هذا الصمت الذي خيم لحظات فقلت للمرأة الشابة :

— اريد ان اوضح شيئاً لعله مما لا يحتاج الى ايضاح ولكنه ضروري في مثل هذه الحالة .

فرفعت طرفها الخفيض اول مرة وكان في نظرتها تساؤل ، فقلت :

— تعرفين ولا شك ان اسرار الناس مصونة عند الطبيب ، وهي ملك لهم وامانة لديه ، وليس من قوة بقادرة على انتزاعها منه ولو بالتلميح ، ولكن حالتك بالذات تحتاج الى شخص ثالث ... فما رأيك ؟ فانتفضت المرأة الشابة بقوة وقالت — كلا ، لا اريد ان يعلم لا اريد ان يعلم ...

فقلت في هدوء .

— طبيعي انه لن يعلم شيئاً عن امر الرسالة ، ولكن من الخير له ان يعلم كلمة الطب في حالة زوجته ، وهذا ما اريد له ان يعرفه بالتفصيل .

ما ان غادرتني المرأة الشابة حتى اسرعت الى الاتصال بزوجها بالتلفون دون معرفة سابقة ، وطلبت ان يحدد لي موعداً لمقابلته في امر ضروري ؛ فأجاب الرجل اجابة كريمة ، ورحب بالتعرف الي ، وعبر عن الامتنان حين علم ان الامر يتعلق بحالة زوجته الصحية . واني لاستعيد الان ذكرى هذا اللقاء الذي بدأ متحرجاً ثم تطور الى مصارحة مخلصة بين رجلين احدهما طبيب تهمه شؤون مرضاه والاخر زوج تهمه حالة زوجته وام ولده ، وكلاهما يتوخى غاية واحدة وهي شفاء المريضة . وطبيعي ان الزوج لم يتوقع ان يخرج من هذا اللقاء وهو شاعر بأن المرض فيه لا في زوجته ، ولكنه تلقى هذه الحقيقة المرة بصدر رحب معترفاً بأن حياته

البيتية لم تكن سليمة وانه المسؤول عنها .

وكانت هذه الحادثة من الحوادث التي زادتني يقيناً بأن نجاح الطبيب يعتمد بنسبة كبيرة على خروجه عن حياد العيادة ، لكي يقيم صلات وثيقة مع جمهوره ، لان طبيب الاسرة هو صديق الاسرة ايضاً ، وهو امين اسرارها وناصحها المؤتمن .

لقطات سائح

الفندق الذي القينا فيه عصا الترحال في لييننغراد قصر فخم من الطراز العتيق معمارياً ، وكانت لييننغراد تسمى في زمن القياصرة « بطرس بورغ » اي مدينة بطرس الاكبر باني روسيا الحديثة . وقد درج القياصرة على احلال ضيوفهم في هذا القصر الباهر ، ذلك ان السجاد الفاخر ، والثريات النادرة ، والتحف الكثيرة الفريدة والقيشاني ، واللوحات الزيتية .. كل هذه لا تجدها الا في المتاحف .

وطبيعي ان يمازج القديم الحديث ، ان يتعايشا . مثلا ، مع السلالم الفساح المفروشة بالمخمل والسجاد كان ثمة مصعد . هذا المصعد تقوم على الخدمة فيه عجوز تكاد تكون في الغابرين ، بلغت من الكبر عتيا فاشتعل الرأس منها شيباً ، والوجه اخاديد وغضونا . يخيل اليك انها لا تقف على قدميها الا بالجهد ، انها « لو توكأت عليها لانهدمت » كما يقول بشار .. كانت قد بلغت الثمانين ، فخطر لي انهم ابقوا عليها في الفندق ضمن ما ابقوا عليه من اوابد وآثار قديمة أحد رفاق الرحلة — وكان يتقن الروسية — جاذبها اطراف الحديث ، سألها لماذا لا تتقاعد وتريح عظامها الهشة العتيقة ، كما يقول القوم هناك ؟ قالت « اشتغل لاعيش ، فانا ما زلت قادرة على ان آكل خبزي بعرق الجبين. »

ظللت ليلتي افكر في جوابها الذي فتح عيني على امر لم اكن اعيره اهتماماً . فبائعات الصحف في روسيا ، المستخدمات في شبابيك التذاكر في السينمات والمسارح ، عاملات المصاعد ، عجائز كلهن ، تجاوزن الستين او السبعين ، وكلهن يعملن ليعشن. يجب على كل انسان ان يعمل ،

ولا مكان في ذلك المجتمع للكع او كسول .

طِرْبنا الان بضعة الاف من الكيلومترات ، الى سان فرانسيسكو في الولاياتَ المتحدة الاميركية ، حيث يكثر الهيبيون .. وما ادراك ما الهيبيون . هؤلاء شبان وفتيات تفور دماؤهم فورانا ، هربوا من مجتمعهم ليعيشوا مطلقي الاعنة لا يردعهم وازع ولا يكبح جماحهم كابح . وقد ذهبت الى حيهم او قل مستعمرتهم ، فرأيت العجب .. رأيتهم يتعاطون الحب جهرة ، ويمشون حفاة ، ويتعمدون ان يلوثوا اقدامهم بالطين والحمأ .

هؤلاء الفتية في الاصل ضاقوا ذرعاً بالاوامر والنواهي ، دينية كانت ام اجتماعية ام عرفية . افعل ، لا تفعل ، هذا عيب وهذا ممنوع .. فاخذوا يهربون من اسرهم ويبيحون لانفسهم حريات كانت الاسرة او المجتمع او القانون يحد من افلات اعنتها .

من اين اتاهم الجذب والاغراء ؟ من الادباء والفنانين في البداية . ومعروف ان الفنانين ، بعامة ، خارجون على المجتمع ، ثائرون ، في نفوسهم وارواحهم . هذا العصيان ، هذه الثورة تنعكس على مظاهرهم الخارجية . اطالة الشعر ، الالبسة الغريبة ، ربطات العنق الكبيرة الفاقعة .

ولكن الفنانين قد يجدون في جعباتهم ما يقيم الاود او ما يسعف نزوة في زي او رغبة في اغراب ، واما الهيبيون فلا موارد لهم ويكاد لا ينضب معينهم المادي الذي استلفوه او سرقوه من اهاليهم حتى يحاولوا كسب لقمتهم الشظفة بضروب من المهن ، كأن يبيعوا مجلة الجامعة ، او يتاجروا بالخرز والاقراط والعقود .. ثم يزدادون املاقاً ، وتزداد ثيابهم هلهلة حتى يمدوا اليد ويفلسفوا المسألة « الشحاذة » ويعودوا لا يرون فيها ذلا

وفي الاخبار انهم اسسوا «جمهورية» انتسب الى رعويتها الف شخص مبدئياً . دستورها : لا دستور ، لا قوانين ولا قيود ولا تملك مادياً او معنوياً .. هل فهمت ، قارئي العزيز ، معنى التملك المادي والمعنوي ؟ يعني الاباحية في كل شيء حتى في المرأة المشاع ...

وقد رأيت في مستعمرتهم فتاة مثل فلقة الفجر الربيعي ، آية في الرقة

والجمال وتناغم الالوان ، كانت بلا نعلين وجعلت تخب في الوحل تلوث هاتين القدمين الجميلتين وتذرو الطين على ساقيها حتى يقربها « الوسخ » من الهيبيين زلفى ، فلا تعد دخيلة مستجلدة ..

دخلت مخزناً كل من فيه هيبي ، كان الرجال يضعون اقراطاً وحلياً رخيصة من الخرز ، والاظافر طويلة وسخة ، وطراطير مضحكة على الرؤوس .. وصادف دخول فتاتين جميلتين ، فهرع هيبي لخدمتهما قال :

– هل استطيع خدمتكما ؟ او بيعكما من مصنوعاتنا ؟

قالت احداهما : انا هنا للاستطلاع والفرجة... هل هناك شيء « بالبلاش » (مجاني) تعطينا اياه للذكرى ؟ قال : لا توجد بضاعة في الدنيا بلا ثمن ... واستطيع ان ابيعك نفسي من غير فلوس فماذا تعطيني عوضاً ؟

– اعطيك لوح صابون (اشارة منها الى حاجته لتنظيف جسده ولسانه).

والهيبيون يشحذون فلا يقولون « من مال الله » او « حسنة لله » ، ولكن « هل تستطيع ان تصرف لي شيئاً ؟ »

ان الهيبية نشدان الى الفقر والقاء الحبل على الغارب ، ولكنه فقر اختياري. انهم ينامون على الادراج ومداخل البيوت ، او يحشرون انفسهم كل عشرة في غرفة .

والسؤال الذي يردد ابمثل هذا الرفض لقوانين المجتمع تكون الثورة على اعوجاج هنا او خلل هناك من المجتمعات المعاصرة ام بتصرف آخر ؟

أتراه ليس في اشتغال ابنة الثمانين عاملة في المصعد او بائعة للجرائد ، وعطالة ابناء العشرين كليهما ام تراه انتفاضة هذا الجيل نتيجة خراب العالم بالقنبلة الذرية وبالوحشية المغلفة بأثواب المدنية ؟

ظاهرتان ، هما ، فريدتان في هذا العصر الفريد ، عصر القيم المقلوبة ، والمفهومات المعكوسة . عجوز في ارذل العمر تعمل لتعيش ، وشباب في ميعة الصبا يتسكعون آناء الليل واطراف النهار ... ايعيشوا ايضاً.

مزق انسانية مهترئة ، متآكلة ، ناصلة الالوان ، تمارس « حياة نباتية ، » كما يقول الفلاسفة ... بل هي ثمرات تفكك اجتماعي استشرى في شرق الارض وغربها . هنا ان لم يعمل الشيخ الهرم لا يجد القوت .. وهناك امعن الرخاء والترف في تفسيخ البنيان وتفتيت الكيان ، فراح الانسان يطلب المزيد من الحرية حتّى اودى به ذلك الى الفوضى العقلية والاخلاقية والمادية ..

ظاهرتان، على ما فيهما من تناقض مرئي، تلتقيان في الدافع والمحرك والاساس .

ظاهرتان فوضويتان انبثقت اولاهما عن الامعان في التنظيم وكانت الثانية وليدة الاغراق في الانفتاح والانفلات طرفا نقيض ، فهل نعجب لهما ان التقيا ؟

انا والفنجان و.. عيد العمال!

عيدان يحتفل بهما في موسكو احتفالا كبيراً ، اولهما عيد الاول من أيار ، عيد العمال العالمي ، والثاني عيد الثامن من تشرين الثاني عيد الثورة. ويغلب على عيد العمال الطابع الجماهيري ، اي انه اشبه ما يكون بمظاهرة شعبية ، في حين ان عيد الثورة عبارة عن استعراض عسكري حتى الخطاب الذي يلقى انما يلقيه وزير الدفاع السوفياتي .

ليلة عيد اول ايار نبهنا الى ضرورة الاستيقاظ باكراً لحضور العرض العسكري والمظاهرة في الساحة الحمراء ، فلما كان الصباح أقلتنا الباصات الى رصيف طويل عريض ترى منه الساحة الحمراء ويستوعب الاجانب الوافدين من اربعة اطراف الارض لمشاهدة العيد . وقد اختير ذلك الرصيف لحكمة ، فهو رصيف فندق « انترناسيونال » حيث يستطيع السياح اذا هم اصابهم تعب او برد او ظمأ ان يدخلوا ردهات الفندق ويستمتعوا .بما يأكلون ويشربون او يصطلون او بما يشترون من تحف وهدايا معروضة في مخازن الفندق .

قبل الثامنة كنا نتخذ اماكننا على الرصيف الشهير. من نحن ؟ خليط من الصحافيين الفرنسيين واليابانيين والصينيين والاميركيين ... وكل تجهز بآلة تصوير او آلة سينما . وما كادت الساعة تدق الثامنة والنصف حتى بدأت صفوف السيارات العسكرية تفد الى الساحة وتأخذ اماكنها المخططة لها من قبل ، على الرغم من ان العرض لا يبدأ قبل الساعة العاشرة والنظام هناك على اشده حتى انك لا ترى في الساحة التي تزيد مساحتها على كيلومترين انساناً واحداً يشذ عن خطه او يقف في غير الموقف

المحدد له وقد تسلق بعض المتفرجين اغصان الاشجار على جانبي الطريق فجاءت الشرطة تأمرهم بالنزول فلما تباطأوا نهرتهم نهراً شديداً ولم تلبث ان عمدت الى انزال من لم يذعن منهم بالقوة .

وقال قائل خلفي بالفرنسية « هذه هي المرة الاولى التي ارى فيها حشداً اجنبياً على هذا القدر من الكثرة والكثافة » . واضاف المتحدث انه كان وسيطاً في منح اربعة آلاف تأشيرة دخول الى الاتحاد السوفياتي من فرنسا وحدها . فكم تأشيرة منحت لبقية البلدان من الشرق والغرب ؟

وانصرف اهتمام كثير من السياح الاجانب الى مشاهدة الدبابات وتصويرها حينما اخذت تزمجر وتهدد قاطعة الساحة مروراً من أمام منصة الزعماء على ضريح لينين . واخذ بعضهم يعلو اكتاف رفاقه لما بدأ مرور الصواريخ الكبيرة التي تحملها سيارات يزيد عدد عجلاتها على العشرين واختلط صوت السيارات بالدبابات بازيز الطائرات تخطف البصر في مرورها البرقي فوق الساحة .

وانتهى العرض العسكري الرمزي في الساعة الثانية عشرة ، كان كل منا قد اعياه التعب ، تعب من الوقوف وتعب من التطلع والمشاهدة ومد العنق .

وبدأت البطون والمعدات تئن وتصرخ ، وحاول نفر منا شق الصفوف التي يرص بعضها بعضاً نحو مواقف السيارات التي اقلتنا فقيل لهم لن تجدوا السيارات قبل انقضاء ساعتين اخريين . وقد حاولنا دخول الفندق لتناول قليل من القهوة او قطع من الشطائر والحلوى ، فلم نفلح لان ردهات الفندق ، على سعتها ، لا تستوعب هذه الالوف المؤلفة من الخلق ، لهذا صفت قرب مداخل الفندق موائد تقوم على خدمتها سيدات يفرغن القهوة في الفناجين ويتقاضين الثمن . وبعد انتظار طويل ، وصبر غير جميل ، حصلنا أنا وزميلي على فنجانين فعدنا الى أماكننا ونحن نصيح بالصفوف المتراصة أمامنا ، بالفرنسية ، وبالانكليزية ، ما معناه ، طريق من فضلك ، عفواً ، حذار ! .. الخ . واسرعنا في العودة الى أماكننا لان أفواج العمال — يعني الشطر الشعبي من العيد — قد بدأت تتدفق الى الساحة

وكان منظراً بهيجاً رائعاً وما يخلب اللب هو رؤيتك اطفالا لم يثنهم البرد القارس عن الهزيج والغناء وهم في البسة خفيفة كنت اشعر ان قدمي ليستا لي – او ليستا مني – من البرد والوقوف الطويل فأما اولئك الاطفال والفتية الصغار فقد كانوا يحملون الازهار الاصطناعية ويوزعون الابتسامات حيناً على ذويهم الذين ساروا معهم واحياناً على المتفرجين الاجانب . والالطف ان اطفالا اصغر ، يكادون لا يحسنون المشي ، قد شاركوا في العرض ، ولكن امتطاء لصهوة اكتاف آبائهم .

في غمرة هذه المشاهد الآسرة وانشغالي بها كان فنجان قهوتي قد فرغ فوضعته ، بحركة سادرة ، في زاوية المبنى خلفي وعدت اشرئب بعنقي الى الامام ، مستزيداً من رؤية هذه البراعم الهازجة المزقزقة مثل حقل ربيعي . ولم اكد افعل حتى شعرت بيد تمسني في كتفي مسا غير رقيق ولا متلطف ، والتفت واذا برجل يرطن علي بالروسية ويشير الى موضع الفنجان من الزاوية . ولم افهم شيئاً فتبرع احد الفرنسيين وشرح لي ان الرجل احد افراد الشرطة السريين ، وقد لاحظ « فعلتي » وهو يوعز الي الآن ان أعيد الفنجان الى حيث اخذته .. فاعتذرت بكثرة الخلق وشدة الزحام واستحالة الوصول الى مدخل الفندق ، وتعذر التحرك في مكاني مجرد تحرك . وانحنيت فحملت الفنجان وعدت الى التفرج . في تلك اللحظة كان يمر موكب الفيتناميين الذين كانوا يلوحون بأيديهم ويدورون حول عربة زينت بما يرمز الى نضالهم ، وتقدمت مني فتاة بعمر البنفسج وهي تبسط يدها بباقة من الورد ، صفقنا للموكب طويلا ، وفي حماسة ، مما اضطرني الى وضع فنجان قهوتي الفارغ عند قدمي الشجرة التي استند اليها .

هذه المرة ايضاً لم اكد افعل هذا حتى عادت الرطانة غير الرقيقة ولا المتلطفة والصوت الزاجر والوجه الصارم – من شخص آخر لا ادري من اين هبط – .. عادت تشير الى الفنجان وترطن علي ..

ورجوت المترجم ان يفهم مراقبي او « سجاني » اني على بصيرة من امر الفنجان ، واني حفظت الدرس ، وسأعيد الفنجان الى مكانه

ما ان تتيسر السبل ويسهل المرور .. وهز الرجل رأسه مستنكراً وأوضح لمن كان له ثواب التوسط والترجمة ان ليس امامي غير خطتين : اما ان اظل قابضاً على الفنجان كالقابض على دينه ، واما ان اشق الجميع واعيده الى مسقط رأسه .

ولست ادري لماذا اوقر في نفسي آنذاك ان كل عينين تنظران الي انما هما عينان تتلطفان بمراقبتي مشكورتين ... وعلى الرغم من هذا التلطف تتجشم دولة طويلة عريضة ، الصعاب من اجل تأمينه لكل من يحل ارضها سائحاً بريئاً مهذباً طلعة ، فاني شعرت بغير قليل من ضيف ، وغير يسير من اختناق ، وتمنيت لو تنتهي تلك المسيرات على جمالها ، وتخلو الساحة واعود الى الباص ، واخلص من تلك الاعين التي تراقب الناس ولا تموت هما .

وقلت في نفسي « لن تجد احب من الحرية الى القلب » .

وفهمت لماذا جمح الشبان في كثير من الدول هذا الجموح العارم نشداناً للحرية حتى وصلوا الى الهيبية .

تحضرني الآن ذكرى من سان فرنسيسكو في الولايات المتحدة . عالم ملون عجيب ترى فيه الاسود والابيض ، والصيني القصير الى جانب الاسكتلندي الطويل ، وترى الانيق المشكول بدبوس — كما يقولون — الى جانب الهيبي رث الثياب ، حافي القدمين الذي يرفض المجتمع ويثور عليه وعلى تقاليده وقوانينه .

ومن كان غريباً مثلي في مثل هذه البلاد — الاقيانوس — يضيع اذا لم يأخذ بيده أحد . وكان لي ذلك « الاحد » الذي قال لي : « اذا اردت ان تتعرف بأميركا الليل وانت على ما انت عليه من انطواء وخجل فما عليك الا ان تنتظم في مجموعة يقوم على خدمتها فرع من شركة للسياحة تنقل المشتركين بسياراتها فتدخل بهم مخترقة شوارع المدينة وتغشى بهم نواديها .. وهكذا تستفيد وتستغني عن مهمة السؤال والاستقصاء ، اذ تجد على رأس كل مجموعة دليلا يوضح ويفصح ويبين . »

سار بنا الباص مساء يخترق شوارع المدينة ، وكان يجوب بنا من حي الى آخر .. من حي الهيبيين المنحلين الى حي الصينيين المتكاتفين ، ثم ارتدنا فنادق المدينة الفخمة وغشينا صالوناتها الواسعة ، وفي نهاية المطاف اعلن الدليل نبأ وصولنا الى ملهى من أكبر ملاهي المدينة واكتسى صوته رنة وطنة وكأنه يعلن عن تضحية كبيرة تقدمها شركته للمشتركين : ملهى لا يرقص على مسرحه الا رجال تزيوا بزي النساء !

بدأ ركاب الباص يتسابقون ويتزاحمون وكأنهم قادمون على مشهد طالما تاقت اليه نفوسهم الخبيثة في صدورهم . وظللنا وقوفاً ، بعضنا على

الرصيف وآخر على درجات السلم الموصل الى الملهى مدة عشر دقائق ريثما استطاع الدليل افساح امكنة تستوعب الثلاثين نفراً الذين ضمهم الباص . ولما صدر الامر الينا بالدخول حشرونا كل خمسة أشخاص على مقعد خشبي شبيه بمقاعد الحدائق العامة . نتزاحم فيها بالمناكب والخصور والارجل ، حتى ذكرت قول شاعرنا المرحوم خليل مردم بك.

لو صببت الماء فيما بيننا لم يكد يخلص من فرط التصاق

وتمنيت لو كانت جارتي فتاة ريانة الجسم صبوح الوجه أو لو كان جاري شاباً مرحاً يتقن الحديث بالفرنسية .. ولكن الرفاق كانوا جميعهم في الخريف من العمر .. وهم عني لاهون بالمشهد الطريف ، مشهد رجال تزيوا بزي النساء بشعور مستعارة واثداء كاذبة وألبسة فاضحة وغناء بأنكر الاصوات .

والصالة التي تضم الآلاف ، يقومون ويقعدون ، يصفقون ويصفرون طرباً واستحساناً للراقصين المخنثين الذين لبسوا الطراطير ووضعوا الريش على اعجازهم تشبهاً بالراقصات .. مما بعث في نفسي التقزز وأحسست بالضيق ، التفت الى صاحبي وأومأت اليه انني أكاد اختنق وسأنتظره خارج الملهى ، في المقهى المجاور ، ريثما تنتهي المهزلة، ورحت اشق طريقي بين زبائن الملهى الواقفين والواقفات على الاقدام ، وما عرفت كيف تخلصت من الزحام لاجد زحاماً اشد وأدهى خارج الملهى .. اناس من كل حدب وصوب ، رجال ونساء ، يقفون بالتسلسل اثنين اثنين مشكلين صفاً طوله ١٠٠–١٥٠ متراً ينتظرون دورهم في الدخول . وكان المطر ينهمر فيبلل البستهم ، بعضهم يتقيه بالمظلة وآخر بالمعطف الواقي ، وثالث يمسك فوق رأسه محفظة تقيه شر البلل .. ولا يشعرون بالسأم والتعب في سبيل الوصول الى مشهد .. غير فني ، الى مشهد من مشاهد الشذوذ الجنسي .

بقيت عشرين دقيقة والمنتظرون في امكنتهم لا يريمون ، فلما خرج الربع من الملهى تدافع الواقفون لاحتلال امكنتهم ..

تساءلت : ترى لماذا يزعج هؤلاء الناس انفسهم فيهربون من بيوتهم

الدافئة الهادئة ويرمون بها في هذا الجو الماطر ؟ من جهة اخرى من الدنيا يقف الناس مشكلين صفاً لا يقل طولا ، لا يبالون بالحر وبالفقر في سبيل الحصول على لقمة العيش .. أما هنا فقد اكتظت معداتهم ، وانتفخت بطونهم ، فلم يعودوا بحاجة للسعي وراء لقمة العيش ، فانبروا يتسابقون لاشباع غريزة الجنس ، وللشطط والانحراف .. انهم يتزاحمون على كل ما هو غريب ، وعلى كل بدعة هروباً من واقعهم المادي الرتيب الممل .. انهم يتلمسون السعادة في غير مظانها فلا يجدونها .. انهم يفتقدون سعادة الروح وغذاءها بعد ان توفرت لهم اسباب سعادة الجسد واغذيته .

وتزاحمت الاسئلة على شفتي

ما كدت اضع عصا الترحال في الفندق المخصص لي في موسكو حتى خرجت انادي اول سيارة تاكسي تمر بي . كان معي العنوان الذي اود ان اقصده أول ما اقصد في المدينة الكبيرة ، اعني عنوان صديق قديم ضربت أيدي الليالي بيننا عمراً مديداً ، عشر سنوات طوالا ، كنا قبلها نكاد لا نفترق الا على موعد لقاء قريب . وبسطت يدي للسائقة بالعنوان المكتوب بالروسية ومضيت افكر في طلاوة اللقيا .. لقيا تشفي شوقي اولا وتفتح لي مغلق مدينة لا أعرف لغة اهلها ولا أدري شيئاً عنها الا انها شاسعة أكبر من دولة صغيرة .

طرقت باب الصديق واذا هو يخرج الي في مباذله ، اشعث ، ما اشد ما تغير ، ولكن الابتسامة ، حرارة القلب ، بساطة الحفاوة .. هذه لم يتغير فيها شيء . ولبث لحظة طويلة يحملق في ، ثم فرك جفنيه ، ووسع عينيه ، ومد يديه تتحسسان يديّ وتضغطان عليهما . واخيراً قال : « انا لا أصدق ، اريد ان اتأكد باللمس انك في موسكو . » قلت ضاحكاً : « الا تدعوني الى الدخول اولا ؟ » وفسح لي مدخلا فدخلت. كان دهليز البيت صغيراً مساحته متران بمتر واحد ، وكان فوضوياً تنحشر فيه منضدة ابنه الصغير وكتبه وصناديق البسة ومهملات كثيرة تكاد لا تجد لك معها ممراً الا بالجهد الجاهد . ولما دخلت الصالة قفز ابنه هارباً وهو يحمل على كتفيه غطاء نومه الصوفي . كان نائماً في الصالة التي تقوم مقام غرفة الطعام وغرفة المكتبة وغرفة الاستقبال وغرفة القعود جميعاً .. هنا التلفزيون والراديو ، وهنا الكتب وادوات السمر .. يعني

هنا تقضي الامسيات ويستقبل الضيوف .
ولما كنت طلْعَة سارعت قبل ان يستقر بي المجلس ، اتعرف بقية غرف الدار ، كان ثمة غرفة اخرى وحيدة للنوم ومطبخ لا تزيد مساحته على المدخل كثيراً .
قلت وانا لا اكتم دهشتي
— ابعد كل ما سبق لك من جهاد ، وما حرك قلمك البديع الاصيل من عواطف وعواصف، لا تجزى بأكثر من هذا البيت الصغير، « السجن المنفرد » ينام ابنك في صالونه ويكتب وظائفه في دهليزه الذي يشبه الخزانة . أذلك لانك متلاف كعهدي بك ام لامر آخر ؟
— لا ، وانا احيا في بحبوحة ويسر يحسدني عليهما كثيرون . خذ مثلا جاري ، وهو جنرال في الجيش ، ان مساحة داره كمساحة داري تماماً ، هما توأمان . ان للفرد حقاً في تسعة امتار مربعة لا تزيد . ونحن ثلاثة . زوجتي وابني وانا ودارنا سبعة وعشرون متراً مربعاً على التمام والكمال ...
— ولكن ..
— ولكن ، الا تراها منسقة منمنمة ؟ الا ترى كيف اسبغت انامل امرأتي عليها سحراً في الترتيب والتنسيق املاه العرفان والشكران ، ان لنا بيتاً ، لنا وحدنا .
— وكيف يكون البيت اذاً ؟ مشاعاً ؟ ..
— توجد بيوت تسكنها اسر عدة ، ولكن الجميع يسكنون ولا يلتحفون السماء .
قلت زدني شرحاً
— ها انذا افعل .. اعلم ان هذه مساكن تبنيها الحكومة . وقد كان حظي كبيراً اذ اتيح لي هذا المسكن . تصور انني ظللت انتظر دوري اشهراً اذا لم اقل سنوات .
— رحم الله الشام . اين منك دورها الغناء الفيحاء ..
— هناك الفقراء الذين يسكنون جحوراً ، والاغنياء الذين ينعمون

في قصور منيفة اسطورية ، واما هنا فالناس سواسية ، لا فضل لطبقة على طبقة الا بالعلم . للعلماء وحدهم ارصدة في المصارف مفتوحة على مصاريعها ، غير محدودة ، يغترفون منها ما يريدون .

— اذن هي طبقية اخرى ، او هي بداية ولادة طبقات جديدة ، بداية انقسام المجتمع الى اغنياء وفقراء ، ما دام العالم يستطيع ان يحيا في النعيم المقيم ، ويستولد امرأته اولاداً على صوان من الذهب .

قال محتجاً :

— عرفت شيئاً وغابت عنك اشياء ، ذلك ان الوراثة غير موجودة في ظل هذا النظام . ان للعالم ان ينفق ما يشاء ولكن غير قادر على توريث ذريته روبلا واحداً .. ثم ان الحكومة دأبت على تبديل عملتها كل خمس سنوات او عشر . انها تمنح المواطنين مهلة زمنية محدودة يستبدل خلالها بالروبل القديم روبل جديد يختلف عن الآخر شكلا وقيمة . وطبيعي بان لا يستطيع خازن الاموال او سارقها الظهور بمظهر الاغنياء لانه يعرض نفسه للسؤال والجواب والتحقيق « من اين لك هذا ؟ » ولكنه يخزنه بانتظار الفرصة او لتوريثه اولاده من بعده .. الم يأتك نبأ الاشخاص الذين انتحروا قبل ست سنوات حين استبدل بالروبل القديم هذا الجديد ؟

— لماذا ؟

— لا تخلو كل امة من فئات تأكل الرشى وتتبع الطرق الملتوية وتثرى من اشد السبل التواء .. وتكنز العملات والثروات .. فلما بدلت العملة غدا ما كنزوا لا يساوي اكثر من ثمن ورقه المهترئ . وهكذا وجدوا انفسهم وما ادخروا — غشاً او تقتيراً — هباء منثوراً فلم يتحملوا الصدمة .

وأضاف يقول :

— نسيت ان اقول لك ان هناك طبقة اخرى مميزة هي طبقة الاطفال . ان الحكومة لا تألو جهداً في الترفيه عنهم وتسليتهم وانشاء الحدائق والملاعب لهم ، والتفنن في اغناء المدارس بكل ما هو مستطرف مستظرف

لانهم ارهاص الغد وأمل المستقبل الافضل

كان بي من الشوق الى صديقي ما جعلني انهنه اسئلة كثيرة كانت تتزاحم الى شفتي ان تنطلق وددت ان اناقش مشكلة علاقة الاقتصاد المتطور بالديمقراطية المتطورة .. ان اسأل لماذا لم يتوصل النظام الاشتراكي الى محو الفارق بين بؤس الفقير ورفاه الحاكم .. ان اتساءل لماذا – والمجتمع هناك مجتمع وفرة من حيث المبدأ – لماذا يحتاج الانسان ان يقف في الصف اياماً لكي يحصل على ساعة من السلع الا اذا كان ثمة بعض التفاهم « العملي » بينه وبين البائعة المتلهفة الى زوج من الجوارب او زجاجة عطر ؟ .. ولكني اجلت اسئلتي تلك الى جلسة لا يكون الشوق فيها غلاباً حتى الاسكات ...

تلك الايام كان بكري سامي ، وهو طبيب يتابع اختصاصه في اميركا منذ ست سنوات ، يقضي أشهره الاخيرة في الولايات المتحدة ، فقررت أن اغتنم الفرصة وارحل إلى تلك القارة قبل عودته إلى بلده . وكنت اظن انه وحده سيكون عكازتي ودليلي الذي يشد به ازري وتحل عقدة لساني في بلد جديد علي كل الجدة .. واذا « كل غريب للغريب قريب » واذا أنا تتلقفني الجالية العربية في جود لم تبدده السنون ، وحفاوة اغتربت مع هؤلاء المغتربين ، لانها استقرت في الدماء وورثها الاباء والابناء . ورأيت ان هذه المجلة المتواضعة تغترب هي ايضاً كل شهر فتتداولها الايدي ، وتطرق كل دار عربية ، فتقرأ من الغلاف إلى الغلاف ، في حرارتين حرارة المقدر للجهد ، وحرارة الغريب الذي شط به المزار فجاءته هبة من نسيم عرار اوطانه ، من ارواح اهله وخلانه . اجل صرت مثل لقمة الغلاء وقد أفيض في شرح الزهو المعافى الذي خالجني ، والادلال البريء من الغرور الذي استشعرته ولكنك ، قارئي العزيز ، تحدس ما يمكن ان يزدحم على ذلك الذي قطع عشرات الآلاف من الكيلومترات وظن انه غدا غريب الوجه واليد واللسان كما قال ابو الطيب ، واذا هو يقع في ذلك النأي على أهل وخلان يستقبلونه استقبال الظمآن للمزنة الجواد .

ودعاني أحد هؤلاء الاخوة إلى وجبة طعام في احد المطاعم . وما أكثر مطاعم القوم . ان مطاعمهم كثيرة لان الناس جميعهم ، رجالا ونساء ، يعملون . وتقوم على الخدمة في هذه المطاعم سيدات منهن

البيضاوات ومنهن السوداوات . وقدمت الينا لائحة الطعام فما عثرت فيها على أكلة اعرفها او سبق لي ان تذوقتها ، واختار لي مضيفي لوناً او لونين . والوانهم الطعامية على كثرتها وتنوعها تقوم على اساس من لحم او سمك . وانا رجل نباتي . وكان ما طلبه لي صاحبي طبقاً فيه لحم كثير وكأن طباخهم لم يقنعه دسم اللحم ومدخره الغذائي فأضاف اليه بيضاً كثيراً وهالني الدسم واتساعه وغزارته فعافت نفسي الطبق ورجوت صاحبي ان يستبدل به رغيفاً من الخبز وقطعة جبن أو طبقاً من الرز واللبن اذا وجد . وقال لي الرجل « تذوقه كل منه لقمة او اثنتين فاذا لم يعجبك استبدلنا به ما تحب » . قلت « لا اريد ان امسه حتى لا يحسب علينا ويهدر »

فقال ضاحكاً « سواء عليهم أتذوقته أم لم تتذوقه فانه سيرمى به في القمامة وان هذه الوجبة من الخبز التي أمامك سيكون مصيرها عند رفعها ، هي ايضاً ، صندوق القمامة سواء لمستها ام لم تلمسها لان الاصول المتبعة هنا ان لا يعود إلى المطبخ شيء خرج منه .. »

ولما ابديت تعجبي من هذه البعثرة والبذخ قال لي : « اذن اعلم اني قرأت ذات يوم تحقيقاً قام به أحد الخبراء المختصين خلاصته ان ما ترميه مطاعم اميركا في صناديق القمامة من أطعمة يكفي لاطعام فقراء الهنود الذين يربو عددهم على اربعين مليون انسان طوال شهر كامل وهكذا تحفظ حياتهم ولا تتخطفهم المجاعات كما يجري الان مما أصبح من الحوادث اليومية العادية » .

وتذكرت مشروعات هندية لاجراء عمليات تعقيم في سلسلة الابحاث التي تنشط في تلك البلاد العجيبة الشاسعة لتحديد هذه الطوفانات العارمة من النسل عمليات تعقيم تشمل الرجال والنساء فتخفف من نقص الغذاء ووفيات الاطفال والشيوخ وحتى الشبان بسبب المجاعات المهولة

في الهند تدخل المجاعة منطقة من المناطق وتخرج واذا هي قد أخذت معها الملايين ملايين لا يجدون ما يقيم بعض الاود وأما

في اميركا فيرمى الأكل بحاله رمياً كأنه زبالة حتى الكلاب لا يرضى أصحابها ان تطعم فضلات المطاعم ... الدليل ؟ .. ذات مساء كنت في الفندق وفتحت جهاز التلفزيون (في كل غرفة جهاز تلفزيون مهما تكن درجة الفندق) ازجي بالتفرج عليه الوقت ، واذا خمسون بالمئة من الاعلانات – والاعلانات تقطع هنالك كل برنامج – تنصب على أطعمة للكلاب تحوي الفيتامينات والمقويات وادوية للكلاب تضمن لها النشاط وغزارة الشعر وألقه .

وبينا أنا اتصفح في اليوم التالي احدى الصحف لفت نظري خبر مفاده ان الرخص التي منحتها السلطات لاقتناء كلاب قد بلغت ٤٤ مليون رخصة يكلف اطعامها وتربيتها الف مليون دولار ...

كلاب تأكل اللوز والسكر والفيتامينات مثل الجياد المسحورة في الاساطير ، وبشر يتساقطون تساقط الذباب لانهم لا يأكلون في شهرهم ما يهدره مطعم مترف في دقيقة .

أين الخلل في هذا العالم المحير ، القاسي ، الموفور ، البخيل ؟

في لينينغراد ايضا

تركت رفاق الرحلة يعرجون على المتاحف والآثار والمقابر ، ورحت أسأل عن أماكن الفرجة الحية التي يحتشد فيها الناس حول منظر حي من مناظر الطبيعة والحياة ، وهي كثيرة متنوعة في مدينة ارادها مؤسسها بطرس الأول ان تكون الثغر الذي تدخل منه نفحة الحضارة الاوروبية دفعة واحدة، إلى رئتي روسيا المتخلفة، وارادها القياصرة ان تكون العاصمة الجديرة بمن يبسطون سلطاتهم على سدس الارض ، ثم ارادها خلفاء لينين ان تكون خليقة بمكانتها التاريخية والحضارية باعتبارها مهد الثورة الشيوعية ومنطلق الآراء الجديدة التي حملتها هذه الثورة .

ومن عادتي اذا هبطت مدينة جديدة ان اجوس معالمها بوسائل النقل العادية اولا ، ثم على القدمين ، وبهذا أجمع بين النظرة السريعة الشاملة إلى كل هذه المعالم وبين النظرة المتمهلة المتذوقة لبعض ما أعجبني أو استوقف نظري .

حينما صعدت إلى « الباص » ، وقفت أنتظر قاطع التذاكر ، ثم فرغ مقعد قرب النافذة فجلست فيه ، وطال جلوسي دون أن يسألني أحد قيمة بطاقة الركوب ، ثم لحظت وانا انقل بصري بين مشاهد الطريق وركاب « الباص » ان الناس يصعدون من المواقف إلى السيارة ويقصدون إلى صندوق من الحديد ذي غطاء زجاجي ، فيزلقون فيه النقود ويقطعون البطاقة من بكرة تدور على لولب دون ان يكون هناك من يحاسبهم ويراقبهم اثناء هذه العملية فقمت من مكاني أفعل مثل ما فعلوا ،

ولو انني بقيت جالساً من دون أن ادفع لما سألني أحد ، فهل كانت هذه الظاهرة دليلا على استقرار الامانة في النفوس واكتمال الشعور بالواجب الاجتماعي ؟

قد يكون الأمر كذلك ، وقد يكون السبب تفاهة المبلغ المطلوب من الراكب ، فهو سواء في (الباص) أو (الترولي باص) او (المترو) أو (الترام) لا يتجاوز القروش أو الملاليم او الفلوس المعدودات — اي مقدار خمسة كوبيكات بالعملة الروسية . ولكن هذه الملاليم تؤلف كل يوم مبلغاً يزيد على المليون روبل في مدينة كبيرة مثل لينينغراد يستعمل فيها وسائل النقل العامة أكثر من ثلاثة ملايين نسمة ، فاذا « طنش » عن الدفع بضعة الاف كل يوم كانت الخسارة كبيرة وقد تزيد في السنة الواحدة ثلاثمائة مليون روبل ، فلماذا جازفت الدولة بتطبيق هذا التدبير ؟

تقول مرافقتنا الروسية : « ليس في الامر مجازفة ، فان المسؤولين قد حسبوا الواردات قبل تطبيق هذا التدبير وبعده ، وكان هناك فرق محسوس في البداية ، وقد ظهر ان سببه يعود إلى جهل الناس بطريقة الدفع الجديدة في وسائل النقل ، وتعودهم ان يدفعوا لمسؤول معين ، ثم زال الفرق بالتدريج ونجحت التجربة . » وأضافت المرافقة تقول « لا شك ان رقابة المجتمع على الفرد لها سلطانها العظيم ، ولكن رقابة المرء على نفسه أقوى من اي رقابة ، وهذا ما ربحناه خلال هذه التجربة . »

في رأيي ان الشعور بالواجب لا علاقة له بنوع النظام القائم ، ففي سويسرا الرأسمالية تسير ايضاً وسائل النقل العامة من دون جباة ولا مراقبين ، وكذلك تجري الحال في روسيا الشيوعية رغم اختلاف النظام بين البلدين في حين ان « الباصات » في بلد اوروبي متطور مثل ايطاليا تحتاج إلى جاب ومفتش وشرطي لتسلم بطاقاتها من « بلطجية » نابولي وشطار ميلانو ، والمسألة في رأيي تتعلق باقتناع المواطن ان له حقاً في المجتمع وعليه واجباً وان القرش الذي يقصر عن دفعه في سبيله العادل سيجتمع من تراكمه المبلغ الذي يسدد مرتبات السواقين ،

وأجور تعبيد الطرقات ونفقات صنع وسائل المواصلات ، وان هذا القرش محور حركة المدينة ، وكل هذا لا علاقة له بنوع النظام بل بوعي المواطن وبادراكه للافاق الاجتماعية والاخلاقية التي تمتد وراء سلوكه حتى في التوافه من الامور .

ولا أنسى ما قاله لي قبل سنوات سائق تاكسي في سويسرا اثناء مباسطته لي بالحديث . لقد طلبنا – نحن السواق – من حكومتنا فرض ضريبة جديدة على سياراتنا والسيارات التي تعمل في خدمة السياح لانفاقها على تشجير وتعبيد الطريق الفلاني ولما استبان امارات التعجب على وجهي اردف يقول « سنجني – نحن السواق – ارباحاً من السياح تفوق الضريبة التي ستفرض . »

ولكن مالي توقفت عند هذه النقطة بالذات ؟ انني لم أقطع ألوف الكيلومترات إلى مدينة لينينغراد الروسية لكي أفلسف الظاهرات الاجتماعية ، وانما جئت للفرجة والمتعة والتحرر من واجبات المجلة والعيادة وانطلق حيث تقودني الرغبة الخالصة . وفي لينينغراد مراتع كثيرة للانس والمتعة والفسحة ، فهي مدينة البر والبحر والنهر ، مدينة القصور ، والحدائق والجسور ، مدينة الفن العريق والجمال النبيل ، وهي إلى هذا كله مدينة الليالي البيض حيث لا تغيب الشمس قبل الساعة الحادية عشرة ولا تزيد في غيابها القصير الخاطف عن اسدال خمار شفاف على الوجود ، فاذا الاشياء تبدو وكأنها في عالم مسحور ويستمر هذا ساعة وبعض ساعة ، تأخذ بعدها الاشياء في الظهور كما ينحسر النقاب الشفاف عن وجه جميل صبوح ، وتنظر في الساعة وانت تحسب انك قد ضيعت صلاة الصبح ، فاذا الساعة لا تتجاوز الثانية ، ومع هذا فان كل شيء واضح مشرق كأنه في رابعة النهار .

كان يستعصي علي النوم في هذه الليالي الساحرة .. ربما لانها مضيئة ، وقد تعودنا ان نجعل النهار معاشاً والليل لباساً ، فمتى يكون اللباس في هذا الضوء النهاري ؟ أو لعل متعتي بهذا الجديد كانت تطرد عني الرغبة في النوم ، فكنت أتسلل من الفندق إلى الشارع ومنه أتمشى من

دون هدف ، فأتوقف عند جسر (شميدت) ، او اتأمل الهدوء الذي يخيم على المدينة ، وهو هدوء عجيب مع وجود الصنوبر ، لان النفوس لم تألف مثله إلا في آخر الليل .

شعرت ذات ليلة من هذه الليالي البيض انني أتجول في مدينة مهجورة فداخلني نوع من الفزع .. وعلى الرغم من ان هذا الشعور لم يستغرق سوى لحظة سريعة ، فقد ايقنت في هذه اللحظة العابرة ان الاشياء تستمد وزنها وقيمتها من وجود الآخرين ، فما قيمة مدينة كاملة يملكها الفرد اذا حرم من الشعور بالثراء الذي يستمده من وجود الناس ؟ اي قيمة ان نملك من دون أن يعرف احد اننا نملك ؟ ..

لقد تمنيت في تلك اللحظة ان تستيقظ المدينة ويعود اليها عجيجها وضجيجها ويأخذ كل امرىء مكانه منها ، الباعة في المخازن ، والسواق في وسائط النقل ، والموظفون في المكاتب ، والعاطلون في المقاهي ، والعابرون في الشوارع ، وان آخذ مكاني بين هؤلاء الملايين ، وبذلك انتقل إلى الوضع الطبيعي الذي ينبغي ان يكون فيه كل انسان .. اي من هامش الحياة إلى قلب الحياة .

عيادة الطبيب الخاصة ، مهما اتسعت ، لا تعدو بضع غرف بسيطة الاثاث ، تقتحمها العين ، ولا يحلو فيها الانتظار .

ولكنها بالنسبة إلى طبيب تبدو دنيا وسيعة الارجاء تشمل الحياة والاسرة والمجتمع بما في هذه العوالم المترامية من مآس ومفارقات ، لو انها ازيحت عنها الستر ، لتعرى الافراد والجماعات امام انفسهم ، وامام بعضهم بعضاً ولسقطت الاقنعة عن الوجوه ، لتبدو بسماتها الحقيقية عارية من كل زخرف وطلاء يلطخانها في ساعات الحياة اليومية العامة .

وفي هذه اليوميات . يقدم لنا الدكتور صبري القباني صوراً واقعية من حيوات وافراد وأسر وجماعات ، اتصل بهم أو اتصلوا به عن طريق عيادته ، وتعرت أمامه نفوسهم كما تعرت اجسادهم . وكان له نصيب اوفى في حمل مشكلاتهم ، والخوض في أسرارهم والاضطلاع بمتاعبهم ، ولقد كتب هذه اليوميات باسلوب حر صريح قد يخز النفوس ولكنه يوقظ الضمائر ، وقد يثير أهل التزمت ولكنه يرضي رواد الصلاح والاصلاح بما يضعه امامهم من مشكلات الحياة والمجتمع ، كيما يكونوا ، عند بحثها واستقصاء اسبابها وملابساتها ، اشد بصراً وابعد نظراً لا يبهرهم نفاق التزمت الكاذب فيعميهم عن روية الحقائق .